

العدد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

العدد الثالث

الاشتراكات

١٠٠
عن نصف سنة
واللطب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المستقبل

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
ستة عشر أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة

٢٨ يناير سنة ١٩٥٢

١ جمادى الأولى سنة ١٣٧١

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهي الخولي

(٣)

بين الشيطان والإنسان:

« قال فما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا نجدُ أكثرهم شاكرين (١) »
روى الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما صور الله آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ؛ فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك »
ومعناه أنه خلق ضعيفاً لا يتمالك بمهام الأمور ، ولا يتأسك أمام المغريات التي تزين له وتعرض لفتنته . قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم : (أي لا يملك

العدد الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدد الأول

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سعيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع النيل

بالروضة بالقاهرة

الاشتراكات

٦٠ عن نصف سنة

وللطوب

٨٠ عن سنة كاملة

٤٠ عن نصف سنة

٢٥ عن ثلاثة أعداد

يضاف إليها أجرة

البريد خارج القطر

المُسْتَلَبُونَ

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي

ستها عشرة أعداد

٢٨ يناير سنة ١٩٥٢

١ جمادى الأولى سنة ١٣٧١

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهي الخولي

(٣)

بين الشيطان والإنسان:

« قال فلما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين (١) »
روى الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما صور الله آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ؛ فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتألك »
ومعناه أنه خلق ضعيفاً لا يتألك إلهام الأمور ، ولا يتأسك أمام المغريات التي تتزين له وتعرض لفتنته . . قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم : (أي لا يملك

نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه)

وكل ذلك متسق مع ما قدمنا — في المقالين السابقين — من أوصاف الإنسان التي يستمدّها من خصائص طبيئته ! !

وهي أوصاف لا ترشح صاحبها لعباء من الأعباء ولا لمنهج سليم مسديد . . وكيف يرجى أن يكون كفؤاً لشيء من ذلك وهو لا يجد في طبيئته تلك من عدة إلا ما يجده أي حيوان أعجم في جبلته ؟ !

ولكن الإنسان — على ما عرفنا سابقاً — لا يرجع في استعداداته إلى خصائص الطين والحما المسنون فحسب ، بل يرجع كذلك إلى خصائص الروح العلوى الذي نفخه الله فيه ، وهي وحدها مدد قوته ورشده .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا في حديثه الذي أورده ، أن إبليس عرف نواحي الضعف في الإنسان حين رآه أجوف ! . . ولا شك أنه عرف كذلك فيما بعد ما أودعه الله فيه من خصائص الروح التي نفخها فيه . . فإذا جاء الشيطان يسلخنا عما استودعنا الله من كرامته فهو هدفه الذي اختاره على علم ، وركز فيه جهده على عمد ، ليرد فريسته إلى أسفل طبيئتها ؛ وذلك هو هلاكها الذي أراده بقوله : « فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم »

الصراط المستقيم :

والصراط المستقيم هو الطريق السوى الذي تهدي إليه فطرة الله في الإنسان . . . أو هو السلوك الفاضل الذي لا ينحرف به صاحبه يمنة أو يسرة عما يرضى الله والناس ؛ وأصول هذا السلوك مركوزة في فطرة الإنسان ، يعرف بها الخير والشر ، والحسن والقبيح ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بين والحرام بين » فمن كان ذا فطرة سليمة واضحة هدى إلى المنهج السوى ، إلا أن يقعدله الشيطان بسبيله فيلبس عليه أمره ، ويحجبه عن مصادر النور فيه ، والله سبحانه يقول في الحديث القدسي : « إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالهم الشياطين عن دينهم ^(١) »

وقال جماعة : إن الصراط المستقيم هو الإسلام ، وقال آخرون : هو القرآن ؛ وكلا القولين حق ، يتسق مع ما تقول ولا ينقضه ؛ فالقرآن الكريم — وإن تأخر

(١) رواه ابن كثير في تفسيره سورة الروم

نزوله — هو روح الإسلام الذى اختاره الله سبحانه لعباده منذ الأزل ، وأرسل به الرسل ، ودعا إليه خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم بقوله : « فاقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .

فسلوك المرء ونهجه الذى يسير عليه هو الصراط . واستعداده الفطرى لعمل الخير ومعرفة الله هو الذى يقوم له نهجه ، ويسدد مسيله بما يلهم من صالح العمل وينكر من سيئه .

ولكل سبيل غاية ، والله سبحانه هو الغاية التى يجب أن يقصدها أهل ذلك الصراط بكل قول أو عمل .. فما أريد به وجه الله فهو السداد والاستقامة على الصراط السوى . ولكن الشيطان يقعد له هذا الصراط ويتربص به غفلة عن الله ؛ فإذا غفل صار لينا فى يده الشيطان لا يتمالك ، وسهل عليه أن يحيل به يمينا أو شمالا عن طريقه المستقيم . ولقد أوضح الله سبحانه ذلك فى مثل رواه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ؛ وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ؛ وعلى الأبواب ستور مرخاة ؛ وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا (٢) . . . وداع يدعو من فوق الصراط ؛ فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتح ، فإنك إن تفتحه تلجه . . . فالصراط الإسلام . والسوران حدود الله . والأبواب المفتحة محارم الله . وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله . والداعي من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم (٣) » . وهو مثل جليل يقرب الله به سبحانه كثيرا من الحقائق إلى أذهاننا ، ويبين فيه معنى الاستقامة ، ويشير إشارة واضحة إلى ما فى الإنسان من استعداد لليل والانحراف عن الجادة ، ويقرر فضل الفطرة — واعظ الله فى قلب ابن آدم — كلما همت غرائزه التى لا تتمالك أن تنحرف به يمينا أو شمالا لمقارفة ما حرم الله . . .

الخير والشر

وهذا يقضى بنا إلى ما فى الإنسان من استعداد للخير والشر . . . وغنى عن البيان أن الاستعداد للخير هو من إلهام روح الله الذى نفخه فينا . وأن الاستعداد للشر هو قابلية خصائص الضعف للانحراف عن الله ، وذلك أصح مناقيل فى تفسير قوله سبحانه :

(١) الروم ٣٠

(٢) لا تعوجوا : أى لا تميلوا يمينا أو يسارا .

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائي .

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاهها وقد خاب من دساها^(١) » . فمن استقام مع إلهام فطرة الله فهو المتقى ، ومن استجاب لغرائزه التي لا تتألك ضل سواء السبيل . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه الآيات قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليها ومولاها » . ولا سبيل للشيطان أن يأتي الإنسان من قبل خصائصه الروحية ، فهي سلطان الله فيه ، لا قبل للشيطان أو غير الشيطان أن يقربه ؛ والمراء في عز بهذا السلطان وحصن مكن ما استظل به واستمسك بهديه ، فإذا غفل عنه كان في حراسة غرائزه التي لا تتألك ، وكان بها أهون شيء على الشيطان .

وغرائز الضعف التي لا تتألك ، هي غرائز الإنسان الدنيا التي تخلد به إلى الأرض ، ولا توحى له أن يرفع بصره إلى السماء ، وقد أفاض علماء النفس في شرحها وتحليلها ، ومنها غريزة التملك وحب البقاء ، وهما الغريزتان اللتان اتخذهما الشيطان وسيلته في استدراج آدم إلى معصية الله : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ » فإذا ذهبنا إلى أن غرائز الضعف في الإنسان هي عدة الشيطان العتيدة في إفساده كان العقل والنقل مع ما نقول .

ذلك إلى أن الشيطان — لعنه الله — قال : « لا تأخذن^(٢) من عبادك نصيبا مفروضا » . . . فكل من يصدق عليه أنه من عباد الله ، للشيطان فيه نصيب مفروض مهما صفا وثرقي في كماله ؛ ولأمر ما سجلت كتب السيرة أن الله سبحانه كان يظهر رسوله صلى الله عليه وسلم من آن لآخر ، إذ كانت الملائكة تشق صدره الشريف وتستخرج منه حظ الشيطان !

فهل يكون ذلك الحظ أو هذا النصيب المفروض الحتم إلا استعداد كل آدمي للشر عن طريق تنزى غرائزه الحيوانية لزينة الحياة الدنيا ؟

نعم إن الآية تحمل أن يراد بالنصيب معنى العدد قليلا كان أو كثيرا ، ولكن احتمالها لما اخترناه أوضح وأقوى ، فإن الآية به تبدو واسعة الأفق ، فتشمل العدد وغير العدد بدون تكلف أو تأويل لنصها اللغوي ، ولا سيما أنه لن يستطيع أن يتخذ من عباد الله أي عدد إلا إذا كان له في النفوس جانب ممد ، ونصيب مطاوع !

ذلك إلى أن غرائز الإنسان الدنيا جبلة فيه محتومة لا ينسأخ منها ولا تفارقه ، فهي بعض التقويم الذي خلقه الله فيه ، ولا تبديل لخلق الله ؛ وذلك يتجانس مع وصف

(١) سورة الشمس : ٧ — ١٠ .

(٢) النساء ١١٧ .

النصيب بأنه حتم مفروض . . . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير المنار : (النصيب المفروض هو ما للشيطان في نفس كل أحد من الاستعداد للشر الذي هو أحد النجدين في قوله تعالى : « وهدينا للنجدين » ، فهذا هو عون الشيطان على الإنسان ، وهو عام في الناس حتى العصومين ، ولكن أخبرنا الله تعالى أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين ، فإذا هو زين لهم شيئا لا يغلبهم على عمله ؛ فما من إنسان إلا ويشعر من نفسه بوسوسة الشيطان ، فإن لم يكن بالشرك فبالمعصية والإصرار عليها والرياء في العبادة^(١) .

المحور الأصيل لعمل الشيطان :

قال الشيطان وهو يحاج ربه : « فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تحد أكثرهم شاكرين^(٢) » .

وقد ذهب المفسرون مذاهب في تأويل قوله : « من بين أيديهم » و « من خلفهم » و « عن أيمانهم » و « عن شمائلهم » . . . وخالف بعضهم فيها بعضا ، وكلها تعتمد على الرأي والاجتهاد في الفهم ؛ ولكن لا شك في أنه قول يبين مدى ما سيئذل صاحبه من جهد في الاحتياال على فريسته ، وأنه لن يدع في آدمى ثغرة إلا نفذ إليه منها . ومضى الشيطان يتم محاجته لربه ويبين نهجه الذي سيتخذه إلى ما يريد فقال : « رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين^(٣) » . ولقد قلنا في المقال السابق إن ما بيننا وبين الشيطان إنما هو حرب صفات لصفات لا يعبأ فيها بإراقة دم ولا تمزيق أشلاء ، وإنما يعنيه محو صفات القوة والخير ، وطمس معالم الفطرة التي تعد صاحبها بذلك ، فإذا نكبه فيها فقد أورداه وأورده موارد الهلاك .

وأحب أن يذكر القراء ، بل أن يذكر المسلمون جميعا أن ما أصابهم من تخلف وضعف وهمود إنما هو أثر انهزامهم أمام الشيطان في معركة الخير والشر انهزما نزلا فيه طائعين عن مثلهم العليا ، وتحولوا به راغبين عن سلطان الله الذي هو مصدر عزتهم وقوتهم ، وأنهم لم يفقدوا أوطانهم إلا لأنهم فقدوا أخلاقهم واتبعوا مازين الشيطان . فإذا كانوا جادين فيما يزعمون لأنفسهم من نهضة فليأخذوا ما يعرضه عليهم ربهم

في هذه القصة مآخذ الجد والقوة ، فهو إنما يعرض الخصائص الأصلية لخطط الشيطان في حرب الإنسان .

إن الأمة الجادة في منازلة أعدائها ، تبذل كل جهد ممكن لتعرف أسرار العدو ومناجحه وخططه ولا تبخل في هذا السبيل بأى ثمن مهما غلا ، فإذا ظفرت بما تريد استطاعت أن تعكس عليه قصده وترده على أدباره مدحورا .

وها هي ذى القصة المكريمة تعرض علينا أصول الخطة العامة لكل ما يضع الشيطان من كيد ومكر ؛ فإذا كنا مؤمنين حقاً بأن خصائصنا الروحية لا تقل خطراً عن مقوماتنا الاقتصادية والوطنية — إن لم تزد — فلنتدبر أصول تلك الخطة ، ولنحزم أمرنا ، ولنحرز أنفسنا من كل كيد يراد .

وأخشى ما أخشاه أن يعتبر هذا الكلام ضرباً من النصائح الهينة ، وأن تظل موازيننا لا تحفل إلا بالأمور المحسنة والقيم المتداولة في الخارج ، فيكون الاهتمام بالعدو الظاهر أولى في تقديرنا من الاهتمام بالعدو الباطن ، وتكون مقدساتنا المعنوية أهون من أن تشغل في أذهاننا بعض ما تشغله الأمور المادية .

قال الشيطان فما عرضته الآية السابقة :

لأزينن لهم في الأرض .

ولأغوينهم .

فهما أصلان خطيران ، منهما تحاك كل المكائد ، وعليهما تدار الخطط والمعارك : التزيين في الأرض ، والإغواء ..

الغى :

والغى في الإنسان حالة معنوية تعترى صفاء باطنه فتفسده . وذهب اللغويون إلى ربطها أو مقارنتها بما يعترى باطن الفصيل من فساد التخمرة والبشم بكثرة الرضاع ، أو بما يعتريه من هزال وضمور إذا منع من الرضاع بسبب من الأسباب . . قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : (قال ابن الأعرابي : غوى الرجل غيا إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه ، وهو أحد معاني قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » أى فسد عيشه في الجنة ، ويقال : غوى الفصيل إذا لم يُدِرَّ لبنَ أمه (١) .)

وقال صاحب القاموس المحيط : « غوى الفصيل بشم من اللبن ، أو منع من الرضاع فهزل وكاد يهلك » .

والإنسان يعتريه الفساد أو القى إذا انطمست معالم الفطرة في نفسه أو انقطع مدد الروح الإلهي عنه ، وهو المراد بقوله : « لأغوينهم أجمعين » .
والقى ضد الرشد . . والرشد رشدان :

أما أحدهما فحالة الإدراك التي يميز بها المرء ما يصلح معاشه وما يضره ، وهو المعنى بقوله سبحانه في القاصرين من الأيتام : « فإن آستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » .
وهذا الرشد لامعول عليه إلا في تدبير المنافع المادية ، وهو درجة هينة من التمييز يبلغها الكافر وغير الكافر متى أدرك سناً معينة في العادة .

أما الرشد الآخر فهو درجة رفيعة من إدراك البصيرة ، يهتدى بها المرء إلى حقائق الوجود ، ويميز قيم المعنويات ، فلا يشتبه عليه حق بباطل ، ولا يلتبس عليه الزيف الرخيص بالقيم النفيس ؛ وهو الذي ذهب موسى عليه السلام يطلبه من العبد الصالح : « هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً (١) ؟ »

وأصحاب هذا الرشد يدون في سائر الناس كالعالمين بين الأقزام ، وينظرون إلى سواهم كما ينظر الرجال إلى الأطفال وهم يعشون . وهؤلاء هم أوصياء الإنسانية التي لم تبلغ رشدها والقائمون على هدايتها بإذن الله إلى سواء السبيل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً (٢) » .

وإنك لترى أثر ذلك الرشد في البحث عن الحق والاهتداء إليه في سيرة إبراهيم عليه السلام إذ قال الله فيه « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين (٣) » .
فإنه أدرك بتمييزه العالي أن هناك حقاً أكبر في هذا الكون غير تلك الكائنات الأرضية الهينة ، وغير تلك الكائنات السماوية التي تسخرها النواميس وتتداولها الأحوال ؛ فليس هو كوكبا آفلا ، ولا قمر زائلا ، ولا شمساً غاربة : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

فأول ما أدركه إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو سقوط قيمة المراتب ، وقصور كل شيء منها أن يكون رباً له . . فقد قرأ على هذه المراتب نفسها من صفات الخالق سبحانه ما جعله يلتمس ربه في سواها .

والله سبحانه هو الحق . . وإليه يرجع كل حق ؛ وأول عناصر الرشد كما ذكرنا إبصار الحق أو إدراكه ، وتمييز قيم المعنويات ، ومعرفة ماله قدر منها وما ليس له قدر .
فصفات الله سبحانه حق ، وهي مسطورة على كل شيء ! .

والعدل حق ، والمساواة حق ، والحرية حق ، والصدق والرحمة والأمانة والبر والشجاعة في الحق والثبات عليه حق ؛ وما سواها من أضدادها باطل .

وتعظيم الله حق ، وتعظيم سواه باطل . . ودعاء الله والتوجه إليه والطلب منه حق ، وفعل ذلك لسواه باطل . . وطلب مرضاة الله والتقرب إليه بصالح العمل وطيب القول حق ، وفعل ذلك لسواه باطل . . وحيازة المرء لما يؤتيه الله من خصائص الحق وصفات الخير والكمال خير من كل ما يحوز ويحوز سواه من عرض هذه الأرض وزينتها ما لم يكن سبيلا لصاحبه إلى الحق وعونا له على طاعة الله « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى ، أفلا تعقلون » ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم (١) .

وإدراك هذه الحقائق وتمييز قيمها هو مقتضى الرشد ، فمن أدركها كما يدرك أن الواحد نصف الاثنين فهو الراشد وإلا فهو القاصر وإن حمل من إجازات العلم وألقابه ما حمل .

وإنك لترى أثر هذا الرشد في ثبات إبراهيم عليه السلام إذ عرض على النار فما تغير له رأى ؛ وإنه لثبات لم يتكلف له شجاعة ، فإن الحق الذي يفتن من أجله ساطع في بديته سطوع الشمس فليس فيه شك لديه . .

ذلك إلى أن أرباب هذا الرشد يدركون لأنفسهم وجوداً غير الذي يعيش فيه عباد البدن . . وجوداً يحيون به مع كائناتهم الروحية وأشخاصهم المعنوية التي أراد الله أن تصاغ من خصائص الحق لا من عناصر الطين والتراب . . . وإن كلا منهم ليدرك مدى تعلق حياة كائنه الروحي بالحق الذي آمن به كما يدرك الرجل العادي مدى تعلق حياة بدنه بالهواء الذي يتنفسه ، مع فارق يعرفونه ولا يدريه سواهم ، هو أن البدن قد يظل على قيد الحياة دقيقة أو دقائق إذا احتبس عنه الهواء ، أما الكائن الروحي فعلى مثل حد السيف إن زاغ عنه هلك في أقل من لمح البصر . . . وحياة هذا الكائن عندهم هي الحياة ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . . فإذا سووم أحدهم أو فتن على الحق الذي تجلّى في رصده وتمييزه سخر بالسوم وقال : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما رضيت به بديلاً ، أو قال لفاتنه الذي يعرضه على صنوف العذاب : اقض ما أنت قاض إنما تقضى أدنى الحياتين وأرخص الوجودين ، والله خير وأبقى .

ثبات هؤلاء على الحق ليس مصدره شجاعة متكلفة أو صفة مكتسبة ، بل هو الرشد الذي أبصر المعنويات ، وميز القيم ، وأدرك حقائق الوجود .

ذلك هو الرشد الذي يحرق كبد الشيطان ، ويجهد جهده أن يجتالنا عنه ، ويطمس نوره في بصرنا ... وعكسه الغي .. فإذا كنت قد أدركت الفرق بينهما فقد أدركت الفرق بين النور والظلمة ، والحياة والموت ، والعقل والحق ، وما يريد لنا الله وما يريد لنا الشيطان ! يريد لنا الشيطان هذا الغي الذي نفقد به إدراكنا العالي وتميزنا الرفيع ، فلا نبصر في الحياة إلا ما حولنا من شخوص المادة الحائلة ، ولا نميز إلا قيم بعضها بالنسبة لبعض ، ولا نشغل إلا بتثميرها واستيلادها وتداولها ؛ وتلك هي النكسة البائرة والصفقة الخاسرة التي لا يود الشيطان سواها !!

* * *

التزيين :

أما التزيين في الأرض ، فقد فسر ابن كثير بأنه تزيين المعاصي ، وفصل الزمخشري ما أوجز ابن كثير ، فالأرض هي الدنيا : (لأزيناها في أعينهم ولأحدثهم بأن الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة ، ويطمئنوا إليها دونها) . وكل ذلك صحيح ويجمعه أنه يريد أن يزين كل زيف يعرض للمرء في حياته ، فإذا أقنعه بقبوله والتحول إليه فقد رده إلى الخسارة والحياة .

تزيين المتاع التافه :

ومن التزيين ما يتم بإفساد الذوق العام للمرء . . . ونعني بالذوق حالة الوجدان التي يثيرها بالقلب تجاوبه أو تميزه لقيمة من القيم . . . فقد يزهد في الشيء أو يقبل عليه ، وقد يطرب له أو ينقبض عنه ، وقد يحبه أو يكرهه ؛ ولكن بعد أن يذوقه ويزنه بميزانه وأعلى ما يذوقه القلب ويفرح له ، الإيمان بالله سبحانه ؛ فإذا وجد المرء حلاوة ذلك الإيمان وأحس زينته في صدره فهو آية سلامة الذوق وصحته ، وإليه يتجه قوله سبحانه : « ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة (١) » .

فإذا فسد الذوق بهذا التزيين انطمس فيه تأثيره بالمعاني القيمة الجميلة ، وانحط إلى اشتهاء أبغض القيم وأوكس العروض من أنعام وبنين ونحوها ؛ وهذا بعض ما يصيب المرء من نكسة بتزيين الشيطان له ؛ وقد ندد الله به ونعاه على أهله في قوله سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أونبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار (٢) . . »

تزوين المظاهر :

ومن التزوين ما يتم بفساد تقدير المرء لقيم الرجال وتمييزه لحقائق الناس ، بحيث تغدو مقاديرهم عنده مقيسة بمظاهرهم من الجاه أو المال أو الزينة ؛ فمن يملك من ذلك شيئاً فهو الجدير بالتقدمة والرفعة مهما كانت ثقافته معدنه النفسى ، ومن لا حظ له منه فلا ميزان له مهما ضم في إهابه من عظمة النفس ، وسمو الحقيقة ؛ وقد عجب أهل الطائف أن ينزل الله رسالته على رجل من غير أهل الثراء والرياسة ، فقال كبارهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » ! فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله : « أهي يقسمون رحمة ربك ؟ »

وهذا التمييز الخاطيء هو أثر التزوين الذى يرد الإنسان إلى مظاهر الصور والأشكال بعيداً عن الجوهر الحق والقيم الأصيلة ؛ فرب شخص يرجح أمة وهو لا يزن عند هؤلاء جناح بعوضة ، ورب أمة منهم لا ينظرون إلى الناس إلا من زوايا الحدق وهم لا يزنون في ميزان الله رجل واحد ممن يعيشون في حقائق نفوسهم ؛ وما أحكم ما أصاب القرآن هدفه إذ صور تلك الحقيقة بقوله الحكيم : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا . . . ويسخرون من الذين آمنوا . . . والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »

وهذه حال لا يصلح عليها مجتمع ، ولا تزدهر بها فضيلة ؛ ولذا كان لزاماً على المصلحين وأصحاب الرسالات ألا يعبأوا بذلك الغناء ، ولا يلتفتوا إلى شيء من تلك الزينة ، ولا يختاروا أنصار رسالتهم ودعائم إصلاحهم ومجتمعهم الذى ينشدون ، إلا من ذوى القلوب الذين عرفوا الحق وأرادوه ، وعملوا له وأقبلوا عليه ؛ فأولئك هم الذين يضعون للمجتمع الحق تقاليد السليمة ، وموازينه السديدة ، ويصرفونه عن القشور التافهة ؛ وإلى هذا المقياس الحق والناموس الصادق وجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً (١) »

(١) البقرة ٢١٢

(٢) الكهف

تزيين الظنون والوهم :

ومن التزيين ما ينجح فيه المرء عن علمه إلى الجرى وراء الظنون والأوهام التي لا تستند إلى أساس ؛ وحسب الإنسان جهلاً أن ينصرف عن العلم بالله ، فما تنفعه فلسفته أو معارفه الدنيوية بعد ذلك شيئاً ؛ فإن العلم بالله هو العلم بالحق ، وإذا فات الإنسان أن يجعل الحق أساس علمه فقل في جهله وضلاله ما شئت : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ^(١) »

وحسب الواحد من هؤلاء التافهين أن يلقي إليه الوهم خاطراً من الخواطر في باب العقائد — مثلاً — عن الله أو الملائكة أو النجوم أو البقر أو غيرها حتى يتلقفه ويجعل منه عقيدة يناضل دونها ، ويحيا عليها ، ويورثها من ورائه ؛ وما الزندقة والإلحاد وإنكار وجود الله أو تشبيهه إلا ظنون فاسدة لا تستند إلى أقل سند من طرق البحث والاستدلال العقلي السليم : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ^(٢) »

والقرآن الكريم حافل بأنباء هذه العقائد الوهمية والرد على أصحابها رداً يستعدي العقل وحده في نقض أصولها وبيان مكان الوهم منها « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ؛ أشهدوا خلقهم ^(٣) ؟ ! » « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ؛ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ^(٤) »

وفي عصرنا هذا تروج مذاهب اجتماعية فاسدة ، لا تستند إلى فطرة سليمة أو سنة من سنن الله المقررة ، فهي من قبيل ما يفعل في كل عصر شياطين الإنس والجن إذ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً بما يلقون من أوهام وزينون من ظنون ؛ ولسنا بصدد بيان تلك المذاهب أو مناقشتها فلذلك مجال آخر .

(١) النجم ٢٩ — ٣٠

(٢) الحج ٨

(٣) الزخرف ٢٠

(٤) الزخرف ٢١

وميدان تزيين الظنون في الحياة اليومية أوسع ؛ ومن فضل الله سبحانه أنه لم يرض للمؤمنين من عباده أن يكون لعقولهم حاجة في ذلك التيه المظلم فقال : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » إذ كثيراً ما يرتب المرء على تلك الأفهام نتائج بعيدة الأثر ، فيجب أو يكره ، ويقعد أو ينهض ، ويعارض أو يؤيد ، ويحارب أو يسالم ، تبعاً لما يلقي إليه الوهم من تفسير خاطيء لبعض الأمور ، أو استجابة الظن تخيل معه أن سيكون كذا وكذا من النتائج ؛ وهذا من أسوأ ما يزين الشيطان للإنسان ويفسد به رأيه . وقد نعى الله على قوم قعودهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم استرسالاً مع وهم فاسد وتخيل سقيم : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . »

تزيين العمل السيء :

ومن تزيين الشيطان أن يلقي في صدور أهل المعاصي أنهم أفضل وأقوم من سواهم ، وهذا باب يطول استقصاؤه ؛ وما رأينا مدمناً أو مقامراً أو مسرفاً على نفسه بلهو وفسق ، أو لصاً كبيراً أو صغيراً إلا وقد زين له سوء عمله بضروب عجيبة من المسوغات « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون . »

ومن التزيين ما يخيّل فيه إلى الجبارين والطمعنة من أهل الجاه والسلطان أنهم على الحق وأن مناوئتهم من المستضعفين على الباطل ؛ وقدما قال فرعون لقومه : « ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » « وكذلك زين لفرعون سوء عمله وما كيد فرعون إلا في تباب . »

وبعد ، فتلّك بعض الميادين التي يغشاها الشيطان فيزين للإنسان ما يبهره ويهلكه : يفسد له ذوقه العام فلا يطرب إلا لمتعة الحيوان ، ويفسد له رأيه فتروج فيه الظنون والأوهام ، ويفسد له مقاييسه الاجتماعية فتختل في نظره القيم والأوضاع ، ويزين له سوء عمله فيراه حسناً ؛ وذلك أسوأ ما يُقضى على إنسان : « قل هل ننبشكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^(٤) » . أعاذنا الله من كيد الشيطان وتزيينه ، وهدانا سواء السبيل .

شريعة القرآن دليل على انه من عند الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الفريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

١ — تهاجم الشريعة الإسلامية التي نزل بها القرآن من مواطن علوها ؛ فيتخذ المفرضون الذين لا يريدون بالإسلام إلا خبالاً من الأحكام التي تدل على علو الشريعة في منهاجها وإصلاحها ونظمها دليلاً على عدم صلاحيتها للأزمان ؛ ويتبعهم الذين لا يدركون الأمور على وجهها ، ولا يحصون الحقائق ، ويستخلصونها مما يلقي حولها من ركام ؛ بل يقلدون في القول تقليداً ، ويرددون كل بدع ولو كان خطأ كل الخطأ ترديداً .

ولقد وجدنا الذين اعتسفوا طريق النقد ، واطرحوا كل ميزان للحق يهاجمون الشريعة في كل ما ليس عندهم ، ويسير وراءهم من يحتذون طريقهم حذو النعل بالنعل . ينتقصون الشريعة دائماً حاسبين أن ما عندهم هو الشئ الكامل ، وما في الشريعة هو الشئ الناقص ، حتى التوحيد الذي لا يهضم العقل المستقيم سواء ، ينتقصون الشريعة للدعوة إليه ، واعتباره ركن الإيمان الأول : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . ألم تر « رينان » فيلسوف الفرنسي يقول مستهيناً بالمدارك والعقول : إن الوحدانية التي ينادى بها الإسلام ، ويعتقها المسلمون دليل على سذاجة العقل السامى الذي لم يستطع هضم التثليث المعقد ؛ وإن معانى التثليث لا تستقيم إلا مع العقل الآرى العميق ، ونسى أن السيد المسيح عليه السلام كان سامياً ، ولم يكن آرياً ، وليس له أن يقول إن المسيح إله ، فقد أنكر هو ذلك ، وشلخته الكنيسة من أجله ؛ ونحن نسير في مدارجه لنلوى مقدم دليله على نتيجته ؛ فإذا كان السيد المسيح سامياً وهو بشر فلا بد أنه لم بدع إلا إلى التوحيد الذي لا يدرك الساميون سواء ؛ وأن التثليث الذي تقوله أوروبا هو من تعقد العقول الآرية العميقة التصور ، البعيدة الخيال ؛ التي تتخيل ثم تخال ؛ وإذن فدعوة المسيح الأولى كانت التوحيد لا محالة ؛ وذلك ما نقره وما نرضاه .

٢ — ذكرنا هذا لنبين كيف يعتسف النقد الطريق المستقيم ، وهو مثل واضح للغرض يفسد الفكر ويفسد العقل ؛ وأحسب أن نقدم للطلاق في الإسلام هو من هذا

القبيل ؛ فإن دراسة الطلاق الذى جاء به الإسلام تنتهى إلى أن ذلك النظام لا يمكن أن يصل إليه عقل محمد الأسمى إذ لم تتفتق عنه العقول من قبله ؛ فلا يمكن أن يكون إلا من عند الله . وكان الطلاق مطلقاً فى الجاهلية ، وكان بابه مفتوحاً فى الشريعة اليهودية ، لا يقيد به إلا قيد رقيق واه ضعيف ، وهو كتابة الطلاق أمام القاضى .

فلما جاء محمد بالقرآن من عند الله جاء بجديد على الفكر فى هذه المسألة ، لم يقيد الطلاق بذلك القيد الواهى الضعيف الذى لا يحجز دون الهوى ، ولم يمنعه منعاً مطلقاً كما توارث المسيحيون ، وإن كانت بعض فرقهم قد أخذت تتحلل من المنع شيئاً فشيئاً ، ففتحو الباب بزواية ضيقة ، ولكنها قد توجد متفساً للتحلل من زوجية فاسدة . ولم يحجزه إجازة مطلقة كما كان يفعل الجاهليون ، ويتخذونه للمضارة والمكيدة ؛ يطلقون النساء ثم يعزلونهن بالمنع من الزواج !

٣ — والمسألة فى الطلاق : أن الزواج لا بد أن يقوم على أساس من الود الدائم المستمر ؛ لقوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » والزوجان كلاهما لصاحبه بمنزلة الشعار والدثار ، كما قال سبحانه وتعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وإذا كان الود المستمر أساس العلاقة الزوجية المستمرة لى تكون صالحة للبقاء ، فإنه إذا تقطع جبل القلوب وتنافر ودها ، واستحكمت النفرة ، ولم يمكن علاجها ؛ فإن العلاقة الزوجية تكون غير صالحة للبقاء وإن من المصلحة فصمها ، ومن الخير قطعها أو إنهاؤها .

ولكن كيف يكون القطع أو كيف يكون الإنهاء ؛ وكيف يتبين أن السبب المسوغ للطلاق قد وجد وهو استحكام النفرة ، وتقطع أوصال المودة ، ما السبيل إلى ذلك ؛ وكيف يعرف ؟

هنا نجد القرآن قد عالج الأمر علاجاً نفسياً قليلاً فيه هداية للضالين ؛ وإرشاد وتقويم ؛ ذلك أنه عند الشقاق بين الزوجين أو خوفه أمر بتحكيم حكيم ؛ فقد قال تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليهما حكيماً »

ودعا إلى محاولة الإصلاح ما أمكن ؛ وأمر بالتدخل للصالح عند وجود ما يدعو إليه . فقد قال تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن

يصلحاً بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيراً .

حق إذا تعذر الصلح ، ورأب الثلم ، ورتق الفتق لم يبق إلا التفريق بينهما : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكماً » .

٤ - لا بد من التفريق ، ولكن ما طرائقه ؟ وما مسالكه ؟ أيكون بيد الزوجين متفقين بحيث ينهيان ذلك العقد كما أنشأه . إنه بلا شك إذا تلاقت الإرادتان ، وانفقت الكلمتان بينهما على الافتراق كان الافتراق منطقياً ، والطلاق أمراً مستقيماً ؛ وكل محاولة لعرقة ذلك تكون ضد الفكر المستقيم ، واعوجاجاً في الأمر ، بيد أنه لا بد من تحقق أن ذلك كان لاستحكام النفرة من كل الوجوه ، بتحكيم الحكيم ومحاولة الصلح ؛ ثم بالقيود التي قيد القرآن بها الطلاق ، وسنيتها ؛ وإن تلك هي القاعدة العامة في العقود اللازمة ؛ فإنها تفسخ بتراضيهما كما تنشأ بتراضيهما ، ولكن الشرائع التي حرمت الطلاق لا تلتفت إلى هذه القاعدة . ولو أكلت البغضاء قلب الزوجين ، وحلت الشحنة محل الوداد ، والإخلاص ، ولقد ندد بذلك المحققون من علماء الفرنجة ؛ فهذا « نيتام » يقول : إن القانون يتدخل بين المتعاقدين في الزواج حال التعاقد ، ويقول لهما : « أنما تقرنانا لتكونا سعداء فلتعلما أنكما تدخلان سجناً ، سيحكم عليكما بابه ، وتضم الآذان دونكما وإن علامكما الصباح ، واشتد بكما الألم ، ولن أسمح بخروجكما ، ولو قتلتكما بسلاح العداوة والبغضاء » .

٥ - وإذا لم يتفق الزوجان على إرادة الطلاق ، بل كان إرادة لأحدهما فقط ! فهل يسوغ الطلاق ؟ لا شك أنه إذا كان الراغب في الطلاق هو الزوجة لا يقع الطلاق إلا بحكم القاضي على نظام بينه الإسلام ، واستنبطه من كتاب الله وسنة رسول الله الأئمة الأعلام ؛ وسنشير إليه في كلامنا .

أما إذا كان الراغب هو الزوج فهل يسوغ أن يكون الطلاق بيد القاضي ولا يسوغ سواه ؟ ذلك هو الأمر ، أو تلك هي القضية التي أثاروا حولها الغبار ، وتقولوا على الإسلام فيها الأقاويل ؛ وتبعهم في ذلك من تبعهم من مقلدة المسلمين الذين يتبعون كل جديد ، ويعتقون من الآراء كل بدىء ، وتستطار ألبابهم لكل صوت أو دعوة أو نقد يجرى من قبل الأوربيين ؛ كأن أوربا هي أرض الله المختارة ، أوجنته في الأرض ، وسكانها هم شعب الله المختار .

لقد قالوا إنه في هذه الحال لا يصح أن يقع الطلاق إلا بإذن من القاضي بعد بحث عن البواعث ، وتحري اللواقح ، ومناقشة ومجاوبة وإثبات ودفاع ، ونسوا أن شئون الأسر لا تجري الأمور فيها بالإثبات والكتاب ، حتى تكون فيها الخاصة والدعاء فهي علاقة في أصلها تجري بالود ، وما بين الزوجين لا يعلن بين الملأ من الناس ؛ ثم إذا لم يكن لدى الزوج من البواعث إلا البغض الشديد لزوجته ، والنفرة المستحكمة بينهما فهل يطلب إثبات باعث وراء هذا الباعث الخطير الذي يفسد كل علاقة زوجية ، ويذهب بكل الدعائم الصالحة التي يقوم عليها بنیان الأسرة ، وهل يطلب القاضي منه أدلة عليه ، وإذا كان المنطق والمعقول أن يترك أمر الإثبات ، وألا يبحث عن بواعث أخرى وراء هذا الباعث ، فلاجدوى إذن في كون الطلاق بين يدي القاضي وبأمره ، أو قوله ، وبين أن يطلق الزوج من تلقاء نفسه ؛ بل إن توليه الطلاق من تلقاء نفسه أخرى بالقبول ؛ لأن الترافع إلى القضاء يكشف الأسرار ، ويهتك الأستار ، ويشير ما لا يسوغ إعلانه ، ويتكلم الناس فيه بما لا يحسن بيانه .

وقد يقول قائل إن رفع الأمر إلى القضاء ، ولو كان مآل التطليق إلى أن يكون للزوج خالصا قد يدفعه إلى التريث ؛ بل إنه يكون تعويقاً ، وكل تعويق في هذا الأمر ينفع ولا يضر ؛ فإنه يدفعه إلى التفكير في أسباب البغض تفكيراً عميقاً ، وعسى أن يحدث الله بعد ذلك أمراً ، فتكون المحبة ، وتكون سحابة البغض سحابة صيف تقشعت وإن لذلك القول وجهته ؛ ولكن كشف الأستار بين القضاء ، وتحدث الناس بشأنها مما لا تقره العقول ، ولا ترضاه الطبائع بل إن من شأنه أن يزيد البغض ، وليس من شأنه أن يخففه ، بل إنهما لو عادت بينهما الحياة من بعد لرنقها تذكر ما كان بين يدي القضاء من دعاوى ، وما جرى في مجلسه من أقوال ، ولقد سلك الإسلام طريقاً لتعويق الانفصال وجعله في حال تعذر الاتصال ، تَوَصَّل إلى النتيجة المؤكدة ؛ وهي ألا يكون طلاق من الزوج إلا عند استحكام النفرة .

٦ — وتبتدىء تلك الطريق بتحكيم الحكّمين ، ومحاولة الإصلاح وقد أمر القرآن بذلك أمراً لازماً ؛ وقال جمهور الفقهاء إن التحكيم واجب وجوباً حتمياً لا يصح التفريط فيه ، ومن يوم أن فرطنا فيه قد اعوج السبيل ، واضطرب الحبل ، وفتحت البثرة لمن يتكلمون في شأن الطلاق كأنه كارثة الزواج ؛ وما علموا أنه دواء لا داء ، وأنه علاج لا مرض .

ولقد ورد في الأثر أن عقيل بن أبي طالب قد وقع بينه وبين زوجته خلاف ، فلما علم بأمره عثمان رضى الله عنه وقد كان الأمر في عهده حكم الحكيمين فأصلحا بينهما ، وأوجه مالك وأحمد في كل نفرة بين الزوجين لا يعلم سببها ، وجعل ذلك لازماً على القضاء إذا ترفع الزوجان إليه في أى شئ من شئون الزوجية تبين من ورائه القاضى أن ذلك الخلاف يكشف عن نفرة وليس بين يديه من الظواهر ما يعرف به سببها حتى إذا كانت النفرة غير قابلة للعلاج ، وكان التفريق أمراً لا بد منه جعل القرآن الكريم التفريق تدريجياً لا قطعياً ؛ بالنسبة للزوجة المدخول بها . وذلك أن النفرة إن كانت قبل الدخول ، فإن الإسلام جعلها قاطعة من غير تدريج ، لأنهما إن اختلفا في أول الطريق كان من المصلحة الاجتماعية ألا يستمرا ، وأن يتجه كل منهما إلى وجهته ، كالرفيقين في سفر ، إن اختلفا في الطريق قبل ابتداء السير عدلا عن الرفقة ، ولم يوغلا في الطريق ؛ واتجه كل إلى وجهته ؛ ولذلك لم يحرص القرآن الكريم على إعطاء فرصة للمراجعة بفرض عدة بعد الطلاق قبل الدخول ، عسى أن راجعها فيها ويستأنفا حياة زوجية ، بل جعل الفرقة بائنة فاصمة ؛ فقد قال تعالى : « يأيتها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فتمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » . فلم يجعل الإسلام في هذه الحال فرصة للمراجعة ؛ ولكنه أوجب أن يكون التسريح جميلا ، وأن تكون الفرقة غير مانعة من التراحم ، والمعاملة الحسنة والتسامح الكريم .

٧ — أما إذا كانت النفرة بعد الدخول ، فبذلك هى التي احتاط القرآن في أمرها ، وجعلها النبي صلى الله عليه وسلم في دائرة لا يمكن أن يكون معها طلاق ، وثمة إمكان لعيش رغيد ، وهناء وسعادة في هذه الزوجية التي انفصمت عرا المودة فيها ، وسن في سبيل ذلك سَنَنًا مستقيما ، لو استقام الناس على طريقته ماضوا وما كانوا حجة على الإسلام ، وأول احتياط أن الفقهاء — مستنبطين من الآثار — اشترطوا في الطلاق الذي يسير على مقتضى السنن المحمدى أن يطلقها ، وهو في حال من شأنها أن يكون راغباً فيها ، فاشترطوا ألا يطلقها في حال حيض ، لأن هذه الحال من شأنها أن تنفر الزوج من امرأته ، ولقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر لما طلق امرأته في حال الحيض أن يردها إليه ؛ ولقد قال الله تعالى : « يأيتها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » أى طلقوهن مستقبلات عدتهن ، وقد قال العلماء في تفسير ذلك أن يطلقها في حال طهر ؛ لا في حال حيض ، واشترطوا أن يكون الطهر الذي طلقها فيه لم يحصل فيه دخول بها ؛

فإذا حصل دخول لايسوغ له أن يطلقها ؛ وإن فعل يكون الطلاق بدعيًا لايسير على السنن المحمدي .

فإذا كان الطلاق في طهر لم يدخل بها فإن ذلك يكون دليلا على نفرة قوية ؛ ولكنه لا يدل على استحكامها وتعصيا على العلاج ؛ بل يجوز أنها عاصفة تزول ، أو غيمة غضب قد تنكشف .

ولذلك يحىء الاحتياط الثانى ؛ وهو أن يكون الطلاق واحدة رجعية ، أى يجوز للزوج أن تراجع زوجته فيها ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ؛ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعلوتهن أحق بردهن فى ذلك ، إن أرادوا إصلاحا ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم . الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

والاحتياط الثالث أن تقضى مدة العدة فى بيت الزوجية لا تخرج منه ؛ ولا يخرجها منه ؛ والخروج منه إتيان فاحشة مبينة فى ذاته ولذا قال سبحانه وتعالى : « يأيها النبی إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف » .

ولا شك أن رؤيته لها أو إمكانه الرؤية وسكنها فى بيته طول مدة العدة ؛ وقدرته على المراجعة واستمراره على الطلاق طول هذه المدة وهى نحو ثلاثة أشهر فى أكثر الأحوال وعدم محاولته المراجعة فيها دليل على أن النفرة مستحكمة وقد بلغت أقصى مداها ، وآخر منتهائها ، بحيث لا يمكن أن تكون عشرة صالحة بحال من الأحوال .

ومع ذلك فإن النفس قد تكون تائقة بعد العدة ، وأنه يمكن أن يتدارك الأمر ، فالشارع قد احتاط احتياطا رابعا فلم يجعل الطلاق الأول قاطعا قطعا غير قابل للوصل ، بل أعطى المطلق ثلاث طلاقات على ثلاث دفعات ، فإذا كان الأول وانتهت العدة جاز استئناف الحياة الزوجية بعقد جديد ومهر جديد إذا كان ثمة احتمال لاستئناف حياة زوجية يؤدم فيها بمودة رابطة وعشرة حسنة ، وعدالة فى المعاملة من الجانبين .

وقد احتاط الشارع احتياطا خامسا ذكر فى القرآن ، وهو الإشهاد على الطلاق ؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى الطلاق والمراجعة : « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا

الشهادة لله ، ذلکم یوعظ به من کان یؤمن بالله والیوم الآخر ، ومن یتق الله یجعل له مخرجاً ، ویرزقه من حیث لا یحتسب ، ومن یتوکل علی الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شیء قدراً .

ولا شک أن حضور الشهود العدول فی الطلاق قد یحملان المطلق علی مراجعة نفسه قبل إیقاع الطلاق ، بل قد یحملانه علی العدول بل قد یصعبان الأمر فی الطلاق فیستعان عن الحضور .

وقد قرر فقهاء الشیعة أن الإشهاد علی الطلاق شرط فی وقوعه ؛ كما أن الشهادة فی الزواج شرط لإنشائه ؛ وأن ذلک هو صریح القرآن الذی تلوناه ؛ وأن ذلک هو الذی یتفق مع طبیعة ذلک العقد ؛ فإن شرطه الشهر والإعلان كما ورد فی الأثر « فزق ما بین الحلال والحرام الإعلان » وإذا کان كذلك فی إنشائه ، فلا بد أن یكون كذلك فی إنهائه .

٨ — هذه كلها احتیاطات احتاطها الشارع الإسلامی لیكون الطلاق فی حال الحاجة إلیه حیث تستحکم النفرة ، وتكون الحیاة الزوجیة بغضاء لانعفاء ؛ ویكون بیت الزوجیة نیرانا بدل أن یكون نعماً وریحاناً . وإن تلك الاحتیاطات سنّها الشارع الإسلامی بنصوص القرآن الکریم ، وبالهدی النبوی المحمدی ، وقد قال بعض الفقهاء من الشیعة الإمامیة والظاهریة وغيرهم إن الطلاق إن لم یکن علی ذلک المنهاج لا یقع .

ونبتی أیها القارئ الکریم أی احتیاط نفسی أدق من هذا وأحكم ، وهل یغنی غناؤه تحقیق القضاء ؛ ومراجعة الإثبات إن كانت العواطف الإنسانیة یجرى فیها التحرر والإثبات !! إن أعلم أهل الخبرة من علماء النفس الإنسانیة فی الآحاد والجماعات لا یمكنه أن یتكرر مثل هذا ، وأقصى ما یصل إلیه أن یدرك مرماه وغایته ومقصده ، وقد جاء به أمی لا یقرأ ولا یكتب ولم یتعلم قط ، ولم یجلس إلی معلم قط ، ولم یکن عنده من تجارب الحیاة أكثر من شخص یقیم فی بلد أمی لیس فیہ علم ولا درس ، ولا بحث ولا استقصاء ، ولیست له أسفار أكثر من مرتین ، فإذا قال هذا الأمی إن هذا علمه اللطیف الخیر ، وإنه تنزیل من حکیم حمید لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه فهل یكون کاذباً ، إن الوقائع تؤیده ، والحقائق تصدقه ، والعقل یقره مدعنا مؤمننا مطمئناً إذا لم یکن مثوفاً بآفة من الغرض والهوى ، قد أركسته الشهوات وأضلته الأوهام

٩ — وقد یقول قائل إنك مهما تصور الطلاق بصورة الحقیقة التی یلجأ إلیها ، والضرورة المرة التی یضطر المطلق إلیها ، فإن نمة ظلمنا واقعاً بالمرأة ؛ فإنها الأخری

قد تنفر من الزوج أشد النفور ، فكان ينبغي أن يفتح لها الباب كما فتح للزوج ، ولكنه غلّق دونها وأحكم تغليفه ، والجواب عن ذلك أنه لم يغلّق دونها بل فتح لها ، ولكن بين يدي القضاء وبتطبيق القاضي ، ولم يترك لها الأمر وحدها لسببين :

(أحدهما) أن الزوج قد تكلف في سبيل الزواج تكاليف مالية كبيرة فليس من العدالة أن نجعل لها أمر التطلاق تطلق نفسها كما تشاء ، فتضيع عليه تلك التكاليف المالية ؛ وإن هذه التكاليف تقيد به إن كان الطلاق بيده ، ولا تقيد بها إن كان بيدها .
(ثانيهما) ما لوحظ من أن المرأة تحكمها العاطفة ، وتؤثر فيها الحال الوقتية ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف معاملتها لزوجها : « يحسن إليهن الدهر كله ، ثم يسئ مرة فتقول : ما رأيت منه خيراً قط » . وقد لوحظ أن النسوة اللاتي تكون عصمتن بأيديهن بمقتضى تفويض الطلاق يطلقن لأنفسه الأسباب .

ولكن هل للمرأة أن تطلب الطلاق لمجرد أنها تبغض الزوج ؟ نعم لقد قرر ذلك المالكية وأخذوه مما روى في حديث البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن امرأة ثابت بن قيس قالت : « يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام ، إني لا أطيقه بغضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تردين عليه حديثه ؟ قالت : نعم قال : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة . وبهذا افتدت » .

ومن هذا ومن بعث الحكمين عند الاختلاف إذا تعذر الوفاق قرر مالك رضي الله عنه أن القاضي إن تبين أنها ناشزة لبغضها لزوجها يفرق بينهما ، ويلزمها بالمهر الذي دفعه ، ولقد قال ابن رشد في هذا المقام :

« الفقه أن الفداء إنما جعل للمرأة في مقابلة ما يبد الرجل من الطلاق فإنه لما جعل الطلاق بيد الرجل إذا فرك المرأة جعل الخلع بيد المرأة إذا فركت الرجل (١) » .

١٠ — هذا هو الطلاق في الإسلام ، وقد تهجم عليه المهجمون ، وتبعهم الضالون ، وادّعوا أن استمراره مفتوحاً سيؤدي إلى انهيار الأسرة المصرية ، وقد أثبتنا في بحث

(١) الفرك : البغض مطلقاً ، وقيل البغض بين الزوجين ، والفعل من باب فرح يفرح ، وورد شاذاً من باب نصر .

كتبناه من قبل أن إغلاقه هو الذى سيقضى على الأسرة الإسلامية (١) ، لأنه يؤدي إلى بقاء زواج غير صالح للبقاء ؛ ولأن الإحصاء أثبت أن الطلاق لا يكثر إلا في أول الحياة الزوجية ، فمعنى تغليق بابه إبقاء على زوجية ثبت في أول أمرها أنها غير صالحة للبقاء ، وأنه يقل كلما دامت العشرة ، حتى يصير نادراً ، والنادر لا حكم له .

وإن فتح بابه هو حكمة اللطيف الخبير ، والذين غلقوه قد أدركوا مغبة التخليق ؛ ولذا قال (بيتام) في أصول الشرائع ما نصه : « لو وضع قانون للهِى عن فض الشركات ، ورفع الوصايا وعزل الدليل ومفارقة الرفيق لصاح الناس أجمعون : إنه نهاية الظلم ؛ والزواج رفيق ، ووصى ، ووكيل ، وشريك وفوق كل هؤلاء ، ومع ذلك حكمت قوانين أكثر البلاد المتمدينة بأن الزواج أبدي . . . إن أقبح الأمور عدم انحلال ذلك الاتفاق ؛ لأن الأمر بعدم الخروج من حالة أو بعدم الدخول فيها » أى أن منع الطلاق يمنع الزواج ؛ وقد شرع الله الطلاق ، وهو العليم الحكيم ؛ وفي الموضوع التالى نبين الإعجاز القرآنى في فرائض الموارث ، والله بكل شىء عليم ، وهو ولى التوفيق .

أنت والقرآن ...

قال إقبال :

« أشد ما أثر في حياتي نصيحة سمعتها من أبى : يا بُنَيَّ اقرأ القرآن كأنه

نزل عليك » .

(١) راجع بحثنا الذى نشر في مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٤٠ .

بين الوحي والسيرة

وعدنا القراء في العدد الماضي أن نوافيهم بلون من التفسير يلم بقصة جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مصورة فيما نزل عليه من الوحي ؛ وهو مبحث خطير كثير الشباب وعر المسالك عميق الغور . . ولسنا نزعم أننا كفاء هذا الأمر الجليل ، ولكن حسبنا أن نشق فيه دربا ضيقا راجين أن يقبض الله من يوطيء أكنافه ، ويمهد سبله ، ويذل قطوفه ؛ لينتفع الناس بهدى رسولهم على نهج فيه حرارة الجهاد ، ووضوح الأمر الواقع .

وهما نحن أولاء، ننجز للقراء ما وعدنا وبالله التوفيق ومنه المعونة .

وقصة جهاده صلى الله عليه وسلم في تبليغ أمر ربه ، وهداية الناس به تبدأ منذ نزل عليه الوحي بقوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . . . الخ » وهو أول ما نزل من الوحي على أرجح الأقوال . أما ما قبل نزول الوحي من آفاق سيرته المعطرة صلى الله عليه وسلم فلا يتعلق بمبحثنا هذا ، وقد تكفلت كتب السيرة بتفصيله .

روى الشيخان وغيرها عن عائشة رضى الله عنها : « أول ما يبدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . . »

وهذا الخبر يصور لنا حالة الإشراق والصفاء التي بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته ؛ فقد صفا طبعه ، ورقت نفسه ، وتخلص من حظوظ الشيطان ، واكتمل إشراق بصيرته ؛ فصار غير محجوب بشيء عن أسرار الوجود ، وغدا قلبه النقي كالمرآة الوضيئة تلتقط من أسرار المقادير ما شاء الله ؛ فإذا كان في نومه تمثلت له الأسرار على صورة ما يريد الله من كائنات ؛ فما رأى شيئا منها إلا تحقق في الیقظة كفلق الصبح . وتلك الحال إن هي إلا التهيئة التي لا بد منها لتلقي الوحي ، والاتصال بخبر السماء على تجانس من الصفاء والشفافية .

ومن شأن هذا الإشراق أن يكون لصاحبه بصيرة أو فراسة يستشعر بها ملامح الخير والشر في نفوس الناس ؛ فإذا رأى أحدهم لا يرى فيه صورة اللحم والدم ، بل يرى صورة شخصه المعنوي المؤتلف من ألوان الفضيلة والرذيلة ؛ فينقبض عن إنسان

وينبسط لآخر تبعا لما تستشف له بصيرته وفراسته فيه من ملامح وسمات .
وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الحظ الأوفى ، وسيرته في الرسالة
حافلة بما لفراسته الملهمة من عجائب الأخبار .

ولسنا ندري هل كان ذلك من عوامل انقباضه صلى الله عليه وسلم عن المجتمع
للكي ، وما كان يعج به من ألوان الهوى والإثم والغرور والصلف والشهوة والظلم
والبنى ؟ .. هل كان أهل مكة وكبرائها يبدون له ؟ فلا ترى بصيرته في أحدهم إلا
ما ينطوى عليه من دمامة الغرور والصلف ، وتنن الإثم والشهوة ، فلا يجد إلا أن
يشيح بوجهه ويلتمس الراحة منهم بالعزلة في جوف الجبل ؟ هل كان ذلك من عوامل
انقباضه عن هذا المجتمع الفاسد ، وإيثاره الخلوة أو لم يكن ؟ فإن الخبر الذي رواه
الشيخان عن عائشة يستمر في وصف حاله صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته فيقول :
« ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء ^(١) فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، ويتزود
لذلك ؟ ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فزوده لمثلها . . . »

ما هذا الخلاء الذي حُبب إليه وما عوامله ؟

إننا لا نقول إن بغضه لما فيه أهل مكة من جهل وعماية هو السبب الفرد الذي
حُبب إليه الخلاء ؟ بل نشير إلى لازمة من لوازم الصفاء الوجداني الذي كان يعمل
بصدره صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة ، فإننا لا نستطيع أن تتمثله عليه السلام في
خواطرنا دون أن نلاحظ ما كان في كيانه الشريف آتئذ من حركات نفسية تنفتح بها
بصيرته ، وتنفق بها جوانبه ، ويدهج بها وجدانه . إنها طلائع نور الكرامة الكبرى
تترادف أسرارها من السماء على قلبه ؟ فهل يطمئن إلى رؤية الشرك والإثم والفاحشة
تدب أمامه في هياكل من لحم ودم ، وتطل عليه من وجوه كالحلة صفيقة ؟ ،

وهل كان مما يحجب إليه الخلاء أنه كان يسمع في صمت الطبيعة — كما خلا إلى نفسه
فيها — تسبيحا ينسكب في كيانه من فم كل شيء حوله . . تسبيحا لا تسمعه أذن ، ولا
يرتله لسان ، ولا يحمله صوت أو حرف ؟ فيجد له طربا أي طرب في وجدانه ، ولذة
عميقة لا يعد لها كل ما يجد الناس في دنياهم من نعيم اللذات ؟ .

لقد أشارت السير وكتب السنة إلى ذلك التسبيح ، وإلى تلك الأصوات التي كانت
تناديه بالرسالة ، فلا يرى حوله من هاتف إلا الحجر والمدر والشجر ؟ فيفضي لخديجة
بما يجد فتثبته وتؤيده ، وتصرف عنه كل ما يظن من خواطر سوء .

إنها حال الصفاء والخلوص من الأكدار ، وزوال الحجاب ، والاتصال بسر

الكون وحقيقته . . . ولهذا الاتصال وقعه الحسن في النفس ، وحلاوته في القلب . فهل حب إليه صلى الله عليه وسلم الخلاء من أجل هذا ؟

لقد أثر عن غيره من أهل مكة ممن عاصروه أو سبقوه أن بعضهم كان يتحش أو يتحنف في الجبل ، ولكن حالهم غير حاله صلى الله عليه وسلم ؛ فهم كانوا يفعلون ما يفعلون تلقيناً أو تقليداً أو ذهاباً مع بقية مشوشة غامضة زعموها من موارث دين إبراهيم عليه السلام . . أما هو فإن أمراً ناداه بذلك من وجدانه تجده في قول عائشة رضى الله عنها : « ثم حب إليه الخلاء » . فهو حب للخلة شب بين جنبيه ؛ فلم يملك إلا أن يستجيب لدواعيه ، ويسترسل مع خواطره وهوائه القدسية المباركة ! !

ماذا كان من شأنه مع نفسه صلى الله عليه وسلم في تلك الخلوة ؟ ماذا كانت تحدثه الكائنات ؟ وماذا كان يقرأ في صفحاتها من صفات وأسرار ؟ لقد ذهب عنه ضجيج المجتمع ولغظ الناس ، وألقى بنفسه في خلوة الطبيعة الصامتة الساجية ، فماذا في نفسه من خواطر ، وماذا بينه وبين معالم الكون من حديث وتجاوب ؟ .

ما سر ذلك الفرح العميق الذي يفيض به قلبه ، وتلك الحلاوة التي لا يعرف لها كنها ، ولا يدري لها سبباً إلا أنها تحجب إليه الخلاء ؟ . نستطيع أن نذهب مع التاريخ ببصائرنا إلى تلك الحقبة المباركة الفاصلة ، ونتمثل المجتمع السكي غارقاً في جهالته ؛ تحنم عليه ظلمة العقيدة والشهوة والجهل ، وعلى القرب منه ذلك البشر المهيّب العظيم ، وقد انتبذ منهم خلوة بين جبال مكة ؛ يقلب بصره فيما حوله ، وبصيرته فيما شاء الله من ملكوت السموات والأرض ! !

نستطيع أن نذهب مع التاريخ لتمثل ذلك في الأرض ، ثم لتمثل معه ببصائرنا ما كان يجري في السماء .

إن مقادير الله توشك أن تطلع على الوجود بليلة غراء زاهرة لها من خصائص اليمن وأسرار البركة ما ترجح به في ميزان الله ألف شهر . وإن لهذه الليلة الفريدة في أيام الله لشأناً .

أرأيت إلى الملك الجليل الكريم يريد أن يتلطف لبعض رعيته بأسمى ما لديه من هدية ، ماذا عسى أن يختار لها من ألوان الوشي ، ونقائس الديباج لتحمل فيه إلى من قدرت له ؟ .

إن من كمال التلطف المؤنس في الهدايا أن تتجانس أناقة الطرف الذي تحمل فيه مع

مالها من سناء ونفاسة ؟ فأى ذخيرة ترى أعد الله له ليلة القدر لتكون الظرف المؤنس الذى يتلطف الله بإزاله فيه لعباده ؟

إنه القرآن الكريم جامع أسرار الله ، وخزانة علومه ومعارفه لأهل هذه الأرض ، ومشرق نوره ، ومقاص رحمته ، وأسنى ما لديه للبشر من نعمة تهدي في دنياهم تلك ، يوشك أن تنزل به الملائكة من اللوح المحفوظ إلى بيت الغزة في السماء الدنيا حيث مشارف عالمنا هذا الأرضى .

وها هى ذى طلائع الليلة المباركة تشرق في ملكوت الله ؛ فتزين أرجاءه بأعلام البشائر اختفاء بمشرق النور السنى .

إن ضمير الوجود كان يهتز رضاء وبهجة ؛ إذ استشعر قرب انشقاق غيب الله عن الحق الواضح الذى تنجاب به ظلمات العقول والقلوب ، وما من شئ في الملائ الأعلى إلا كان له شأن بإزاء ما عرف من إقبال الله على أهل هذه الأرض بالمنح والتلطف .

ترى أكان لتلك البشائر التى اهتز لها ضمير الوجود ، وابتهج لطلائعها أهل الملائ الأعلى من صدى تردد في هذه الأرض ؟

إنه ليس في هذه الأرض من قلب هين لين ، حساس مرهف ، اتصل بسر هذا الوجود واتصل سر الوجود به ، فكان أهلاً لأن يتجاوب وإياه كلما أظله سر مقدار من المقادير ، وهو لهذا كله خالق أن تراءى في صفحته المجلوة ما شاء الله من أفراح الملائ الأعلى ، ليس في هذه الأرض من قلب هين مرهف هذا شأنه إلا قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فهل كان الرسول العظيم في خلوته الرائعة يستشعر في ضميره حلاوة ذلك التجاوب الذى كان موصول الترادف بينه وبين ضمير الوجود ؟ وهل أدرك من تفسير صحيح لما انطبع في نفسه الصافية وبصيرته المشرقة من معالم أفراح الملائ الأعلى ؟

وبعد ، فهل تأمل الأمى الموهوب الفؤاد وهو في خلوته فيما حوله من شواهد الطبيعة ؟

إن للهضاب والكثبان وريوس الجبال التى تمتد أمام بصره لخبراً يسمعه منها ، أو يقرؤه عليها من كان في مثل بصيرته ، وفطرته المدركة المشرقة .

وتلك السماء الفسيحة الأقطار ، المترامية الجوانب ، الرائعة الخلق المستقرة في علوها الشاهق بغير عمد ؛ أمالها من حديث يحلوه الصمت العميق ، ويكشف أغواره تأمل البصرة النافذة ؟

ونجومها اللامعة المظلة عليه من قبتها المظلمة ؛ أملها من خالق أسرج لها النور والضوء ، وأرسلها في أفلاكها الأزلية ساجدة ، وأمسكها بقدرته أن تنفرط أو تزول ؛ وهذا القمر الذى يجوب أقطارها ، ويجلو عن وجهها ظلمة الليل في أشكال متباينة حتى يعود كالمرجون القديم إنه آية ناطقة لو سمعت الأذان ! ! ومشهد يشير إلى سر خطير لو أبصرت العيون ! ! وصفحة خط عليها من سطور العبر لو أدركت البصائر وقفت القلوب ! !

والشمس والبحر والناس والشجر والدواب والأنعام ؛ كل ذلك لوحات متفرقة في هذا الوجود شاخصة لبصرك حينما أرسلته ، ولكنها ليست ملاء أو غفلا من المعانى ؛ بل حافلة بأصدق الدلائل التى تحدثك عن خالقها الجليل الذى أبدعها ، وبرأها من العدم .

هل كان الأمى الموهوب الفذ صلى الله عليه وسلم وهو فى خلوته يجيل بصره وبصيرته المهمة فى تلك الألواح الشاخصة من حوله ، فيقرأ عليها معانى بغير ألفاظ ، وسطوراً بغير حروف تفضى إلى قلبه بصفات الخالق العظيم جل وعلا ؟ .

لا ندرى ماذا كان يقرأ على ألواح الكائنات فى تأملاته العلوية ، وماذا كانت تحدثه تلك الكائنات فى صمتها البليغ عن خالقها العلى الكبير ؟ . . ماذا كان يقرأ ببصيرته وماذا كان يسمع بقلبه ، ووعيه الروحى كله فى تلك اللحظة القدسية التى سمت ببشريته إلى أعلى عليين ، والتى استسلم فيها إلى النوم حيث فجأه الوحى بقوله « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فهل بين « اقرأ » هذه وبين حاله وتأملاته فى الخلوة من صلة وتناسب يكشف لنا عن لون من القراءة كان يقرؤه الرسول باسم الله على ألواح الكائنات بلا صوت ولا حرف ؟ .

يحدثنا الشيخان عن هذه القراءة فيما نقلا عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : « فجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال اقرأ ، قال فقلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى ^(١) حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ ؛ قال فقلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ فقلت ما أنا بقارىء ؛ فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره ^(٢) حتى دخل على

(١) غطنى : ضمى وعصرنى

(٢) بوادره : هى اللحمة التى بين المنكب والعنق

خديجة فقال . « زملوني . زملوني » . فزملوه حتى ذهب عنه الروح . ثم قال لخديجة :
 « أى خديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر قال : لقد خشيت على نفسى . . . » قالت له خديجة :
 « كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إنك لتصل الرحم ، وتصديق الحديث ،
 وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . . »
 إن الله سبحانه يعلم أن هذا المختلى فى الغار أى لا يقرأ ولا يكتب ؛ فكيف ينزل
 عليه الوحي بقوله « اقرأ . . . » ؟ .

« يتبع »

تاريخه صلى الله عليه وسلم

« وأريد أن أنص على معنى يغيب عن ملاحظة بعض المعاصرين ممن لهم
 مشاركة فى السنة ؛ ذلك أن تاريخه عليه السلام ، ليس كالتاريخ المدرسى أو الجامعى ،
 أو ليس كتاريخ الأبطال والرجال . . . فتاريخ هؤلاء يؤرخ ما تأثرت به الحياة
 بفعلهم وتوجيههم الذاتى المنبعث من عواملهم النفسية الشخصية ، أما تاريخه عليه السلام
 فهو تاريخ عمل الله السافر وغير السافر ، أجراه سبحانه بيد عبد ربانى ليس له من
 الأمر من شىء ، إذا نطق لم ينطق عن الهوى ، وإذا رمى فليست رميته ولكن
 الله رمى . . . »

من « تذكرة الدعاة »

في ظلال القرآن

للأستاذ سيد قطب

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ .
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » آمين .

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات السبع آيات ، سبع عشرة مرة في كل يوم
وليلة على الحد الأدنى ؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ، وإلى غير حد
إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه . يتطوعاً لغير الفرائض والسنن .

إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات الشاعر والأحاسيس
والتوجهات ما يشير إلى حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة عند كل صلاة .

تبدأ السورة بعد البسملة بالتوجه إلى الله بالمحمد ، حيث تتضمن الآية الإقرار لله
بالربوبية المطلقة « رب العالمين » وهي إحدى كليات العقيدة الإسلامية . والرب هو
المربي والراعي والسيد ، فأنه لم يخلق الكون ثم يدعه لشأنه ؛ إنما هو يرعى ويرعى
ويسود ؛ والعوالم كلها في رعايته وتحت سيادته . وله الحمد على ربوبيته المطلقة على العالمين .

الربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في عالم العقيدة ، بين
الاهتداء إلى الناموس الشامل للعلاقة بين الخالق والخلق وبين الحيرة والتشتت وتعدد
الأرباب . . . وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله خالق الكون وبين
تعدد الأرباب المتحكمين في الحياة ! وقد يبدو هذا غريباً ومضحكاً ولكنه كان
ولا يزال ؛ فقديمًا كان المشركون يقولون عن آلهتهم المتعددة : « ما نعبدكم إلا ليقربونا

إلى الله زلنى» فيعرفون بوحداية الله وتعدد الأرباب . والكنيسة المسيحية تعتقد بألوهية الله ، ولكنها تسمى عيسى رباً . بل تجعل للأجبار والقديسين صفات من صفات الربوبية كما يقول القرآن : « اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

فإطلاق الربوبية لله هنا وشمولها للعالمين جميعاً هو مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة ، ليتجه العالم إلى رب واحد ، يقر له بالسيادة المطلقة ، وينفض عن كاهله زحمة الأرباب الكثيرين وغنت الحيرة بين شتى الاتجاهات : « أرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار » . ؟

« رب العالمين . الرحمن الرحيم » وهذه كلية ثانية من كليات العقيدة الإسلامية : الشعور بما في هذه الربوبية ، وهذه التربية والرعاية من رحمة بالغة عظيمة . فالعلاقة بين الرب والعباد هي علاقة رحمة ورعاية ، والشعور بالرحمة العميقة في هذه الربوبية المطلقة هو الصلة الداخلة بين العبد والرب . صلة القلب والضمير التي تقوم على الحب وتنفض بالحمد . فهي آصرة الاعتراف الخالص لا يشوبها خوف ولا قهر ، ولا يعكس صفاءها رغب أو رهب . إنما هي الاستجابة الطبيعية للرحمة الندية .

إن الله الرب في الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأوبل في نزواتها وثوراتها ! ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في « العهد القديم » من الكتاب المقدس ، لأنه خاف أن تصبح لهم القدرة على عمل كل ما يريدون ! (١) . . . كلا ! كلا ! إنما هي الرحمة البالغة في هذه الربوبية الكاملة .

والكلية الثالثة من كليات العقيدة الإسلامية تتضمنها الآية : « مالك يوم الدين » . والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة ، ويوم الدين يوم الجزاء . ومالك يوم الجزاء هو مالك أيام العمل . فالجزاء نتيجة والعمل سبب . فهو مالك الدنيا ومالك الآخرة جميعاً .

وكثيراً ما اعتقد الناس بألوهية الله وخلقهم للكون أول مرة ؛ ولكنهم في الوقت ذاته لم يعتقدوا بيوم الجزاء هذا ولا بملكيتهم لله تعالى : « وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما نحن بمبعوثين » ، فالاعتقاد بيوم الدين ، والاعتقاد بملكيتهم لله المطلقة لهذا اليوم وللحياة قبله كلية من كليات العقيدة .

(١) سفر التكوين . الإصحاح الحادى عشر . الآيات (١ - ٩) .

الإسلامية . كلية ذات قيمة في انطلاق البشر من كل عبودية أرضية للأشخاص والأوضاع والاعتبارات ، وفي الاستعلاء على ضرورات الأرض وملابسات الحياة . ومن ثم فهي مفرق الطريق بين العبودية والحرية ، أو بتعبير آخر بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله لعباده وهو يقول : « ولقد كرّمنا بني آدم » وبين الصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال .

واختصاص الله بالتوجه إليه والاستعانة به « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » هي الكلية الرابعة التي تنشئها الكليات الأولى الثلاث . فلا عبادة إلا لله ، ولا اتجاه لغير الله . وما من قوة في الكون إلا قوته تملك لأحد شيئاً أو تستحق منه الثفاتاً . قاله وحده يعبد والله وحده يستعان .

وهنا مفرق الطريق في التحرر الإنساني المطلق من القوى المخلوقة جميعاً . قوة الإنسان أو قوة الطبيعة . أي التحرر من عبودية النظم ومن عبودية الأوهام . فإذا كان الله وحده هو المعبود والله وحده هو المستعان ، فقد تخلص الضمير من استغلال البشر والأوضاع والضرورات . وتخلص كذلك من استدلال الأساطير والحرافات والأوهام .

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية ومن قوى الطبيعة .

فأما القوى الإنسانية بالقياس إلى المسلم فهي نوعان . قوة مهتدية تؤمن بالله ، وتتبع سنة الله ، وتنفذ شريعة الله . وهذه يجب أن يؤازرها ويتعاون معها . « وتعاونوا على البر والتقوى » وقوة ضالة ، لا تتصل بالله ، ولا تتبع سنته ولا تنفذ شريعته . وهذه يجب عليه أن يحاربها ويكافحها ويناقضها ويغير عليها . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أوعاتية . فهي بضالها عن مصدرها الأول — قوة الله — تفقد قوتها الحقيقية ، تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها ، كما يفصل جرم ضخم من كوكب ملتهب ، فما يلبث أن ينطفئ ويبرد ويفقد ناره ونوره ، مهما كانت كتلته من الضخامة ؛ على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع ، قوتها وحرارتها ونورها . « وَلَيْسَ ضَرَنَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » ، و « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول ، وباستمدادها من المنبع الأول للقوة وللعزة

جميعا . والذي يستعين بالله وحده لن تقف في طريقه قوة أرضية ، ولن يصيبه إلا ما كتبه الله له .

وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف الصداقة والتعرف والتأمل ، لا موقف العداوة والرغبة في القهر والسيطرة . ففوق الإنسان وقوة الطبيعة كلتاها صادرتان عن قوة الله وعن إرادة الله .

إن العقيدة الإسلامية توحى للمسلم أن الله ربه قد خلق هذه القوى لتكون له صديقاََ مساعداً متعاوناً ؛ وأن سبيله لكسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ويتعرف إليها ويتعاون وإياها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف إليها ولم يصادقها .

وقد درج الغربيون على التعبير بـ « قهر الطبيعة » ولهذا التعبير دلالة ظاهرة على روح الغربى وضميره . إنه لا يتصور علاقة بين الإنسان والإنسان ، ولا بين الإنسان والطبيعة إلا علاقة القاهر والمقهور ، المذل والمذلّل ، السيد والعبد . فهو إما أن يقهر الطبيعة ويقهر أخاء الإنسان ، وإما أن تقهره الطبيعة ويقهره أخوه الإنسان ! .

فأما المسلم فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير القهر والعداء والعبودية . علاقة التعارف والصداقة والاخوة . وموقفه من الطبيعة هو موقفه من الإنسان وموقفه من الحيوان أيضا . إنه يعتقد أن الله هو مصدر هذه القوى جميعا ، فعليها أن تتعاون وتتصادق ، وعليه أن يشكر الله كلما هيا له أن يظفر بمعونة من إحداها . فالله وحده هو الذى يسخر هذه القوى له ، وليس هو الذى يقهرها . وكل مخلوق مسخر لله وحده . « سخر لكم ما فى الأرض جميعا » . « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

وإذن فلن تملأ الأوهام قلبه تجاه قوى الطبيعة وأسرارها ، كما لن تأكل الأحقاد قلبه عليها . إنه يؤمن بالله وحده ، ويستعين بالله وحده ، وهذه القوى صديقة له لأنها من خلق ربه ، وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ويصادقها ، فتبذل له معوتها ومودتها وكنوزها . وما أروع قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ينظر إلى جبل أحد . « هذا جبل يحبنا ونحبه » . ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول من ألفة وود وتجاوب بينه وبين الطبيعة الصامتة فى أضخم مجالها .

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية في العقيدة وتقرير الاتجاه إلى الله وحده للاستعانة يبدأ بالتطبيق العملي لها بالتوجه إلى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها . « اهدنا الصراط المستقيم » ودعوة الهداية إلى الصراط المستقيم هكذا على وجه الإجمال تحمل في ثناياها كل مدلولات الأدعية الجزئية بالرزق أو العافية أو المغفرة أو الثواب . . . وما إليها . إنها دعوة تغني عن كل دعاء ؛ فالصراط المستقيم طريق الوصول والنجاة والهداية . وإذا أطلق شمل كل حركة وكل سكة ، وكل عمل وكل عبادة ، وشمل الدنيا والآخرة . وهذا الشمول هو المقصود هنا لأن السورة كلها كليات ، تناسبها دعوة كلية للاهتمام .

« الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » نوع من التوضيح على طريقة الإجمال أيضا . وحين ينعم الله على قوم فطريقهم الذي يهديهم إليه هو أقوم طريق وأوفقه وهؤلاء لم ينالوا النعمة بحسب بل هم كذلك « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » هم الذين نالوا النعمة الظاهرة ، ونالوا معها الرضى الباطن ، والهداية إلى الغاية . وفي ذكر غير المغضوب عليهم ، وذكر « الضالين » إشارة إلى أن الصراط المستقيم هو طريق الذين أنعم الله عليهم — لا ليفتنهم بالنعمة ، فيستحقوا منه الغضب وينتهى أمرهم إلى الضلال ، إنما هم الذين أنعم عليهم لأنه عنهم راض ، ولأنه أراد لهم الهدى بذلك الإنعام .

وهكذا تتساق المعاني في هذه السورة القصيرة ، وتتناسق الأغراض ، ويبدو التماسك في نسجها والاتساق . وتتجلى تلك الخصائص التي تكشف عن بعض أسرار اختيارها ، ليردها المسلم سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة ، أو ما شاء الله أن يردها كلما قام للصلاة .

السنة

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباغى

(٣)

لماذا لم تدوّن السنة في عهد الرسول

وهل كتب عنها شيء في حياته

لا يختلف اثنان من كُتّاب السيرة ، وعلماء السنة ، وجماهير المسلمين في أنّ القرآن الكريم قد لقي من عناية الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ما جعله محفوظاً في الصدور ، ومكتوباً في الرقاع والسعف والحجارة وغيرها . حتى إذا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن محفوظاً مرتباً لا ينقصه إلا جمعه في مصحف واحد ، أمّا السنة فلم يكن شأنها كذلك رغم أنها مصدر هام من مصادر التشريع في عهد الرسول . ولا يختلف أحد في أنها لم تدوّن تدويناً رسمياً كما دوّن القرآن . ولعل مرجع ذلك إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم عاش بين الصحابة ثلاثاً وعشرين سنة ؛ فكان تدوين كلماته وأعماله ومعاملاته تدويناً محفوظاً في السعف والرقاع من العُسْر بمكان ؛ لما يحتاج ذلك إلى تفرغ أناس كثيرين من الصحابة لهذا العمل الشاق ، ومن المعلوم أنّ الكتّابين كانوا من القلة في حياة الرسول بحيث يعدون بالأصابع ، وما دام القرآن هو المصدر الأساسى الأول للتشريع ، والمعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليتوفر هؤلاء الكتّاب على كتابته دون غيره من السنة ؛ حتى يؤدوه لمن بعدهم محرراً مضبوطاً تماماً لم ينقص منه حرف واحد . وشيء آخر أن العرب لأمتهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم وحدها فيما يودون حفظه واستظهاره ، فالتوفر لحفظ القرآن مع نزوله منجهاً على آيات ، وسور صغيرة ميسور لهم ، وداعية إلى استذكاره ، والاحتفاظ به في صدورهم ، فلو دوّنت السنة كما دوّن القرآن وهى واسعة كثيرة النواحي ، شاملة لأعمال الرسول التشريعية ، وأقواله منذ بدء رسالته إلى ن لحق بربه لَمُزِمَ إكبابهم على حفظ السنّة مع حفظ القرآن ،

وفيه من الحرج ما فيه ، عدا عن خوف اختلاط بعض أقوال النبي الموزجة بالحكمة بالقرآن سهواً من غير عمد ، وذلك خطر على كتاب الله يفتح باب الشك فيه لأعداء الإسلام مما يتخذونه ثغرة ينفذون منها إلى المسلمين لحملهم على التحلل من أحكامه ، والتفلسف من سلطانه . كل ذلك وغيره — مما توسع العلماء في بيانهِ — من أسرار عدم تدوين السنة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبهذا نفهم سرَّ النهي عن كتابتها الوارد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني شيئاً فليحرقه » .

وهذا لا يمنع أن يكون قد كتب في عصر الرسول شيء من السنة لا على سبيل التدوين الرسمي كما كان يدون القرآن . وهناك آثار صحيحة تدل على أنه قد وقع كتابة شيء من السنة في العصر النبوي ؛ فقد روى البخاري في كتاب العلم عن أبي هريرة : أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فركب راحلته فخطب فقال : « إن الله حبس عن مكة القتلى^(١) وسُلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وإنها لم تحل لأحد قبلي ، ولم تحل لأحد بعدي ألا وإنها أحلت لي ساعة من نهار ، وإنها ساعتي هذه ؛ حرام لا يختل شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطها إلا لمنشد ، فمن قتل له قتيلاً فهو بخير النظرين : إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتل » . فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لي يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : « اكتبوا لأبي شاه » كما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى ملوك عصره ، وأمرأ جزيرة العرب كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان يُنفذ مع بعض أمراء سراياه كتباً ، ويأمرهم ألا يقرأوها إلا بعد أن يجاوزوا موضعاً معيناً . كما ثبت أن بعض الصحابة كانت لهم صحف يدونون فيها بعض ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم : كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي كان يسميها بالصادقة ؛ فقد أخرج أحمد والبيهقي في المدخل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو ؛ فقد كان يكتب ولا أكتب » . وكتابة عبد الله بن عمرو استرعت أنظار بعض الصحابة الذين قالوا : إنك تكتب عن رسول الله كل ما يقول ، ورسول الله قد يغضب فيقول ما لا يتخذ

(١) « القتلى » أو « القتل » شك من البخاري .

شرعا عاما فرجع ابن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « اكتب عني فوالذي نفسي بيده ما خرج من فمي إلا حق » ، وثبت أنه كان عند علي رضي الله عنه صحيفة فيها أحكام الدية على العاقلة وغيرها ، كما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب لبعض عماله كتباً حددت فيها مقادير الزكاة في الإبل والغنم .

وقد اختلف العلماء في التوفيق بين أحاديث النهي عن الكتابة ، وبين هذه الآثار التي تدل على الإذن بها ؛ فالأكثر على أن النهي منسوخ بالإذن ، ومن قائل بأن النهي خاص بمن لا يؤمن عليه الغرض ، والخلط بين القرآن والسنة ، أمّا الإذن فهو خاص بمن آمن عليه ذلك . واعتقد أنه ليس هناك تعارض حقيقي بين أحاديث النهي ، وأحاديث الإذن ؛ إذا فهمنا النهي على أنه نهى عن التدوين الرسمي كما كان يدون القرآن ، وأمّا الإذن فهو سماح بتدوين نصوص من السنة لظروف وملابس خاصة ، أو سماح لبعض الصحابة الذين كانوا يكتبون السنة لأنفسهم . والتأمل في نص حديث النهي قد يؤيد هذا الفهم ؛ إذ جاء عاما مخاطبا فيه الصحابة جميعا . ولا يقال إن ذلك يقتضي أن يكون الحكم باقيا على الحرمة ما دام السماح لظروف خاصة ، ولأشخاص معينين ؛ لأننا نقول إن سماح الرسول لعبد الله بن عمرو بكتابة صحيفته ، واستمراره في الكتابة حتى وفاة الرسول دليل على أن الكتابة مسموح بها في نظر الرسول إذا لم يكن تدويننا عاما كالقرآن ، ويؤكد الإذن بالكتابة ما جاء في البخاري عن ابن عباس أنه لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال : « اثبتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده » ، ولكن عمر حال دون ذلك بحجة أن النبي قد غلبه الوجع ، وهذا مما يؤيد الرأي القائل بأن آخر الأمرين كان هو الإذن لا كما ذهب إليه الرحوم الشيخ رشيد رضا من أن الإذن وقع أولا ثم نسخ بالنهي^(١).

موقف الصحابة من الحديث بعد وفاة الرسول

قدمنا لك^(٢) ما رواه أبو داود والترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية زيد بن ثابت : « نضر الله امرأ سمع مني مقالتي فحفظها ورعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » ، وفي حديث آخر : « ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب^(٣) » وهكذا أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته بتبليغ السنة

(١) الجزء العاشر من المجلد العاشر من مجلة المنار .

(٢) العدد الثاني من « المسلمون » .

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن ابن بكرة ج ١ ص ٤١ .

إلى مَنْ وراءهم مع التثبت فيما يروون : « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع ^(١) » . فلم يكن بدّ من أن يصدع الصحابة بالأمر ، ويبلغوا أمانة الرسول إلى المسلمين ؛ خصوصاً وقد تفرقوا في الأمصار ، وأصبحوا محل عناية التابعين والرحلة إليهم ، فكان التابعون يتتبعون أخبارهم ومواطنهم ، فيرحل إليهم من يرحل على بعد الشقة وعناء الأسفار .

هذا كله كان عاملاً قوياً في انتشار الحديث ، وانتقاله إلى جمهور المسلمين بيد أن الصحابة كانوا متفاوتين في التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلة وكثرة فمن القليلين : الزبير ، وزيد بن أرقم ، وعمران بن حصين . روى البخارى في كتاب العلم عن عبد الله بن الزبير أنه قال لأبيه : إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان فقال له : أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول : « من كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار » و يروى ابن ماجه في سننه أن زيد بن أرقم كان يقال له حدثنا فيقول : كبرنا ونسينا ، والحديث عن رسول الله شديد . ويقول السائب بن زيد : صحبت سعد بن مالك من المدينة إلى مكة فما سمعته يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً واحداً ، وكان أنس بن مالك يُتبع الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « أو كما قال » حذراً من الوقوع في الكذب عليه . فما صنعه الزبير ، وزيد بن أرقم وأمثالهما من القليلين إنما كان خوفاً من الوقوع في خطأ لم يقصدوه ، ويظهر أن ذاكرتهم لم تكن من شأنها أن تسعفهم بإيراد الحديث على لفظه أو وجهه الذي سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان من الاحتياط في دين الله عندهم ألا يكونوا من المكثرين .

ولقد أضيف إلى هذا رغبة عمر رضى الله عنه ألا يكثرُوا من التحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام كي لا يشغل الناس بالحديث عن القرآن ؛ والقرآن غرض طرى فما أحوج المسلمين إلى حفظه وتناقله ، والتثبت فيه ، والوقوف على دراسته . روى الشعبي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أندرون لِمَ مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم كدوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالحديث فتشغلوهم ؛ جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وامضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب . ومن الصحابة من كان يكثر الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، ويستكثر منه أيضاً .

فأبو هريرة رضى الله عنه كان من أوعية الحديث التى فاضت على المسلمين فلأنت بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه صدورهم ومجالسهم ، وعبد الله بن عمرو كان يحدث الناس من صحيفته الصادقة ، وعبد الله بن عباس كان يطلب الحديث عند كبار الصحابة ، ويتحمل فى سبيل ذلك عناء ومشقة . أخرج ابن عبد البر عن ابن شهاب أن ابن عباس قال : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني فعلت ؛ ولكنى كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلى فيحدثني ، وهكذا لقي فى سبيل الحديث من العناء ما لقي إلى أن استوعب ما عند من لقيهم من الصحابة من حديث فأخذ يثبه غير مترمت ولا مقل ، ويظهر أنه أقل من التحديث بعد ذلك حين بدأ الوضع فى الحديث ؛ فقد روى مسلم فى مقدمة صحيحه أن بشير بن كعب جاء إلى ابن عباس فجعل يحدثه فقال له ابن عباس عد الحديث كذا وكذا فعاد له فقال ما أدرى أعرفت حديثى كله ، أم أنكرت حديثى كله وعرفت هذا ؟ فقال ابن عباس إنا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يُكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه .

ومهما يكن من إكثار بعض الصحابة التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان ذلك قليلا فى عصرى الشيخين أبى بكر وعمر ؛ إذ كانت خطتهما حمل الصحابة على التثبت فى الحديث من جهة ، وحمل المسلمين على العناية بالقرآن أولا من جهة أخرى . قيل لأبى هريرة : « أكنت تحدث فى زمن عمر هكذا ؟ قال : لو كنت أحدث فى زمن عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقتة (١) .

وهنا لا بد من التعرض لبحثين يتعلقان بموقف عمر من الحديث ، وموقف غيره كذلك :

الأول : هل حبس عمر أحداً من الصحابة لإكثاره من الحديث ؟

والثانى : هل كان الصحابة يشترطون شروطا لقبول خبر الصحابى ؟

وهذا ما سنعرض له فى العدد القادم إن شاء الله ..

(١) جامع أحكام البيان ٢/٢٢١ ، والمخفقة : الدرة أوسط من خشب « القضا » .

«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»

للأستاذ محمود محمد شاكر

حسبُ امرئ مسلمٍ لله أن يبلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبُّوا أصحابي ! لا تسبُّوا أصحابي ! فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفقَ مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدكم ولا نصيفه » ، حتى يخشع لرب العالمين ، ويسمع لنبي الله ويطيعه ، فيكفَّ غرْبَ لسانه وضراوة فكره عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . ثم يعلم علماً لا يشوبه شك ولا ريباً ، أن لا سبيل لأحد من أهل الأرض ، ماضيهم وحاضرهم ، أن يلحق أقلَّ أصحابه درجة ، مهما جهد في عبادته ، ومهما تورَّع في دينه ، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء في سرِّه وعلا نيته . ومن أين يشك وكيف يطمع ، ورسول الله لا ينطق عن هوى ، ولا يدهن في دين ، ولا يأمرُ الناس بما يعلم أن الحق في خلافه ، ولا يحدث بخبر ، ولا ينفثُ أحداً بصفة ، إلا بما علمه ربه وبما نبأه ؟ وربه الذي يقول له ولأصحابه : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم يبين صلى الله عليه وسلم عن كتاب ربه فيقول : « خيرُ الناس قرَّني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادةُ أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » . ثم يزيد الأمر بياناً صلى الله عليه وسلم ، فيدل المؤمنين على المنزلة التي أنزلها الله أصحاب محمد رسول الله ، فيقول : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، فَيَغْزُو فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُونَ : فَيْكُم مِّنْ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ! فَيَفْتَحُ لَهُمْ . ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُونَ : هَلْ فَيْكُم مِّنْ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ! فَيَفْتَحُ لَهُمْ . ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُونَ : هَلْ فَيْكُم مِّنْ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ! فَيَفْتَحُ لَهُمْ » . فإذا كان هذا مبلغ صحبة رسول الله ، فأى مسلم يطيق بعد هذا أن يبسط لسانه في أحد من صحابة محمد رسول الله ؟ وبأى لسان يعتذر

يوم يخاصمونه بين يدي ربهم ؟ وما يقول وقد قامت عليه الحجة من كتاب الله ومن خبر نبيه ؟ وأين يفر امرؤ يومئذ من عذاب ربه ؟

وليس معنى هذا أن أصحاب محمد رسول الله معصومون عصمة الأنبياء ، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا ، فهم لم يدعوا هذا ، وليس يدعيه أحدٌ لهم . فهم يخطئون ويصيبون ، ولكن الله فضّلهم بصحبة رسوله ، فتأدّبوا بما أدّبهم به ، وحرصوا على أن يأتوا من الحق ما استطاعوا ، وذلك حسبهم ، وهو الذي أمروا به ، وكانوا بعد توّابين أوّابين كما وصفهم في محكم كتابه . فإذا أخطأ أحدهم ، فليس يحلّ لهم ، ولا لأحد ممن بعدهم ، أن يجعل الخطأ ذريعةً إلى سبهم والطعن عليهم . هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله . بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولاً مطروحاً عند أكثر من يتصدى لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا ، فإذا قرأ أحدهم شيئاً فيه مطعنٌ على رجل من أصحاب رسول الله سارع إلى التوغل في الطعن والسب ، بلا تقوى ولا ورع . كلا ، بل تراهم ينسوّن كل ما تقضى به الفطرة من التثبت من الأخبار المروية ، على كثرة ما يحيط بها من الريب والشكوك ، ومن الأسباب الداعية إلى الكذب في الأخبار ، ومن العلل الدافعة إلى وضع الأحاديث المكذوبة على هؤلاء الصحابة . وإن أضرب المثل بما يكتبه المستشرقون ومن لف لفهم فهم كما نعلم . ولا بأهل الزيف والضلال والضعيفة على أهل الإسلام ؛ كصاحب كتاب الفتنة الكبرى وأشباهه من المؤلفين . بل سأتيك بالمثل من كلام بعض المتحمسين لدين ربهم ، المعلنين بالذب عنه والجهاد في سبيله . لتعلم أن أخلاق المسلم هي الأصل في تفكيره وفي مناهجه وفي علمه ، وأن سمة الحضارة الوثنية الأوربية ، تنفجر أحياناً في قلب من لم يحذر ولم يثق ، بكل ضغائن القرن العشرين وبأسوأ سخائم هذه الحضارة المتعدية لحدود الله التي كتب على عباده — مسلمهم وكافرهم — أن لا يتعداها .

أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم أبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، وهند بنت عتبة بن ربيعة ، أم معاوية . رضى الله عنهم كيف يتكلم أحد الناس عنهم .

١ — « فلما جاء معاوية ، وصير الخلافة الإسلامية مُلكاً عضوضاً في بني أمية ، لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية » ولم يكتف بهذا بل شمل بني أمية جميعاً فقال : « فامية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملاسات » .

٢ — ثم يذكر يزيد بن معاوية بأسوأ الذِّكر ثم يقول : « وهذا هو « الحليفة » الذي يفرضه معاوية على الناس ، مدفوعاً إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام ؛ دافع العvisية العائلية القبلية . وما هي بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه . فمعاوية هو ابن أبي سفيان ، وابن هند بنت عتبة ، وهو ورث قومه جميعاً وأشبهه شيء بهم في بُعد روحه عن حقيقة الإسلام . فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بنى أمية ، فهو منه ومنهم بريء . »

٣ — « ولستأ تنكر على معاوية في سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها بحسب ، إنما تنكر عليه أولاً وقبل كل شيء إقصاءه العنصر الأخلاقي ، في صراعه مع علي ، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك ، إقصاء كاملاً لأول مرة في تاريخ الإسلام . . . فكانت جريمة معاوية الأولى ، التي حطمت روح الإسلام في أوائل عهده هي نفي العنصر الأخلاقي من سياسته نفيّاً باتناً . ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سُنَّته الرفيعة . . . ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر ، وعلى أيدي عثمان ومروان . . . ثم على أيدي الملوك من أمية . . . ومن بعدهم من بنى العباس ، بعد أن خُفّت روح الإسلام خفّاً على أيدي معاوية وبنى أمية . »

٤ — « ومضى على إلى رحمة ربه ، وجاء معاوية بن هند وابن أبي سفيان ! » (وأنا أستغفر الله من نقل هذا الكلام ، بمثل هذه العبارة النابية فإنه أشبع مارأيته !) ثم يقول : « فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزاً أمام أمية . . . لقد انهار هذا الحاجز ، وانساح ذلك السد ، وارتدّت أمية طليقة حرة إلى وراثاتها في الجاهلية والإسلام . وجاء معاوية ، تعاونه العصبة التي على شاكلته ، وعلى رأسها عمرو بن العاص . قوم تجمعهم المطامع والمآرب ، وتدفعهم المطامع والרגائب ، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير » (وأنا أستغفر الله وأبرأ إليه) . ثم قال : « ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية ، فنحن لا نؤرخ له هنا ، وبحسبنا تصرفه في توريث يزيد الملك ، لنعلم أي رجل هو . ثم بحسبنا سيرة يزيد لنقدّر أية جريمة كانت تعيش في أسلاك أمية على الإسلام والمسلمين . »

٥ — ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية في أهل الكوفة بعد الصلح يحجى فيها قول معاوية : « وكل شرط شرطته ، فتحت قدمي هاتين » ثم يعقب عليه مستدركاً : « والله تعالى يقول : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » والله يقول : « وإن استنصرؤكم في الدين فعليكم النصر ، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق »

فيؤثر الوفاء بالميثاق للشركين المعاهدين ، على نصرة المسلمين لإخوانهم في الدين .
أما معاوية فيخيس بعهده للمسلمين ، ويجهز بهذه الكبيرة جهرة المتبحجين ... إنه من
أمية ، التي أبت تخيرتها أن تدخل في حلف الفضول ! »

٦ — ثم يذكر خطبة أخرى لمعاوية في أهل المدينة : « أما بعد ، فإنني والله
ما وليتها بمحبة علمتها منكم » ثم يعلق عليها فيقول : « أجل ماوليها بمحبة منهم .
وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضى في دين الإسلام . ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام ..
وهو ابن هند وابن أبي سفيان ! » .

٧ — « وأما معاوية بعد عليّ ، فقد سار في سياسة المال سيرته التي ينتفى منها
العنصر الأخلاقيّ ، فجعله للرثى واللهمى وشراء الأمم في البيعة ليزيد ، وما أشبه هذه
الأغراض ، بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال . »

٨ — ثم قال شاملا لبني أمية : « هذا هو الإسلام ، على الرغم مما اعترض خطواته
العملية الأولى ، من غلبة أسرة لم تعمّر روح الإسلام نفوسها . فأمنت على حرف
حين غلب الإسلام ، وظلّت تحلم بالملك الموروث العضوض حتى نالته ، فسارت بالأمر
سيرة لا يعرفها الإسلام . »

هذا ما جاء في ذكر معاوية ، وما أضفى الكاتب من ذيوله على بني أمية ، وعلى
عمرو بن العاص . وأما ما جاء عن أبي سفيان بن حرب فانظر ماذا يقول :

٩ — « أبو سفيان هو ذلك الرجل الذي لقي الإسلام منه والمسلمون ما حفلت
به صفحات التاريخ ، والذي لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام . فهو إسلام الشفة
واللسان ، لا إيمان القلب والوجدان . وما نفذ الإسلام إلى قلب ذلك الرجل قط ،
فلقد ظلّ يتمنى هزيمة المسلمين ويستبشر لها في يوم حنين ، وفي قتال المسلمين والروم
فيما بعد ، بينما يتظاهر بالإسلام . ولقد ظلت العصبية الجاهلية تسيطر على فؤاده ...
وقد كان أبو سفيان يحقد على الإسلام والمسلمين ، فما تعرض فرصة للفتنة إلا انتهزها .. »

١٠ — « ولقد كان أبو سفيان يحلم بملك ورائي في بني أمية منذ تولى الخلافة
عثمان فهو يقول : « يا بني أمية ... تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به
أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرنّ إلى صبيانكم ورائة ! » وما كان
يتصور حكم المسلمين إلا ملكا حتى في أيام محمد ، (وأظن أنا أنه من الأدب أن أقول :
صلى الله عليه وسلم) ، فقد وقف ينظر إلى جيوش الإسلام يوم فتح مكة ، ويقول

للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً » ، فلما قال له العباس . إنها النبوة ! قال : نعم إذن ! . . .

« نعم إذن ! وإنها لكلمة يسمعوها بأذنه فلا يفقهها قلبه ، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان » .

ثم يقول عن هند بنت عتبة أم معاوية .

١١ — « ذلك أبو معاوية . فأما أمه هند بنت عتبة ، فهي تلك التي وقفت يوم أحد ، تلغ في الدم إذ تنهش كبدة حمزة كاللبوة المتوحشة ، لا يشفع لها في هذه الفعلة الشنيعة حق الثأر على حمزة ، فقد كان قد مات . وهي التي وقفت بعد إسلام زوجها كرها بعد إذ تقررت غلبة الإسلام تصيح . « اقتلوا الحبيث الدنس الذي لا خير فيه . قُبِّح من طليعة قوم ! هلا قاتلتم ودفنتم عن أنفسكم وبلادكم ؟ » .

هؤلاء أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يذكرهم كاتب مسلم ، بمثل هذه العبارات الغريبة النابية ! بل زاد ، فلم يعصم كثرة بنى أمية من قلبه ، فطرح عليهم كل ما استطاع من صفات تجعلهم جملة واحدة ، برآء من دين الله ؛ ينافقون في إسلامهم ، وينفون من حياتهم كل عنصر أخلاقي ! كما سماه . وأنا لن أناقش الآن هذا المنهج التاريخي ، فإن كل مدّع يستطيع أن يقول . هذا منهجي ، وهذه دراستي . بل غاية ما أنا فاعل أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين ، ينظرون إلى هؤلاء الأربعة بأعيانهم ، وكيف كانوا — هؤلاء الأربعة — عند من عاصروهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم . وأيضاً فإنني لن أحقق في هذه الكلمة فساد ما بُنى عليه الحكم التاريخي العجيب ، الذي استحدثه لنا هذا الكاتب ، بل أدعه إلى حينه .

فمعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ، أسلم عام القضية ؛ ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً ؛ وكنتم إسلامه من أبيه وأمه ولما جاءت الردة الكبرى ؛ خرج معاوية في هذه القلة المؤمنة التي قاتلت المرتدين ؛ فلما استقر أمر الإسلام وسير أبو بكر الجيوش إلى الشام سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبي سفيان رضى الله عنه . فلما مات يزيد في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبي سفيان . أحسن الله عزاءك في يزيد . فقال أبو سفيان . من وليت مكانه ؟ قال . أخاه معاوية . قال :

وصلتك رحم يا أمير المؤمنين . وبقي معاوية واليا لعمر على عمل دمشق . ثم ولاء عثمان الشام كلها ؛ حتى جاءت فتنة مقتل عثمان ؛ فولى معاوية دم عثمان لقرابته ؛ ثم كان بينه وبين علي ما كان .

ويروى البخارى . (٥ : ٢٨) أن معاوية أوتر بعد العشاء بركة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس فقال : دعه فإنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال فى خبر آخر : هل لك فى أمير المؤمنين معاوية فإنه أوتر بواحدة فقال ابن عباس : إنه فقيه . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٠٢) عن مجاهد وعطاء ؛ عن ابن عباس أن معاوية أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر شعره بمشقص^(١) فقلت لابن عباس . ما بلغنا هذا الأمر إلا عن معاوية ! فقال . ما كان معاوية على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أميركم هذا يعنى معاوية (مجمع الزوائد ٩ : ٣٥٧) . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٠١) عن أبى أمية عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده أن معاوية أخذ الإداوة^(٢) بعد أبى هريرة يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، واشتكى أبو هريرة ، فبينما هو يوضئ رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع رأسه إليه مرة أو مرتين فقال : يا معاوية ؛ إن وليت أمراً فاتق الله عز وجل واعدل . قال معاوية : فما زلت أظن أنى مبتلى بعمل لقول النبى صلى الله عليه وسلم حتى ابتليت . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٢٧) عن العرباض بن سارية السلمى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعونا إلى السجور فى شهر رمضان : هلموا إلى الغداء المبارك ! ثم سمعته يقول : اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ٢١٦) عن عبد الرحمن ابن أبى عميرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر معاوية فقال : « اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به » .

هذا بعض ما قيل فى معاوية رضى الله عنه ، وفى دينه وإسلامه . فإن كان هذا الكاتب قد عرف واستيقن أن الروايات المتلقفة من أطراف الكتب ، تنقض هذا نقضا حتى يقول إن الإسلام برىء منه . فهو وما عرف . وإن كان يعلم أنه أحسن نظراً ومعرفة بقريش من أبى بكر حين ولى يزيد بن أبى سفيان ، وهو من بنى أمية ، وأنفذ

(١) المشقص : نصل طويل عريض (المفس) .

(٢) الإداوة : إناء من جلد صغير كالقربة

بصرًا من 'عمر' حين ولى معاوية . فهو وما علم ! وإن كان يعلم أن معاوية لم يُقاتل في حروب الردة ، إلا وهو يضر النفاق والغدر ، فله ما علم . وإن كان يرى ما هو أعظم من ذلك ؛ أنه أعرف بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من رسول الله الذي كان يأتيه الخبر من السماء بأسماء المنافقين بأعيانهم . فذلك ما أعيده منه أن يعتقده أو يقوله . ولكن لينظر فرق ما بين كلامه وكلام أصحاب رسول الله عن رجل آخر من أصحابه ، ثم ليقطع لنفسه ما شاء من رحمة الله أو من عذابه . ولينظر أيهما أقوى برهاناً في الرواية هذا الذي حدثنا به أئمة ديننا ، أم ما انضمت عليه دفعتا كتاب من 'عرض' كتب التاريخ ، كما يزعمون . ولينظر لنفسه حتى يرجع رواية على رواية ، وحديثاً على حديث ، وخبراً على خبر ، وليعلم أن الله تعالى أدب المسلمين أدباً لم يزالوا عليه منذ كانت لدين الله الغلبة ، حتى ضرب الله على أهل الإسلام الذلة بمعاصيهم وخروجهم عن حد دينهم ، واتباعهم الأمم في أخلاقها وفي فكرها وفي صورتها للحياة الإنسانية . يقول ربنا سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » ويقول : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » . ولينظر أنسى له أن يعرف أن معاوية كان يعمل « بوحى الجاهلية لا الإسلام » ، وأنه بعيد الروح عن حقيقة الإسلام ، وأن الإسلام لم يعمُر قلبه ، وأنه خنق روح الإسلام هو وبنو آية ، وأنه هو وعمرو بن العاص ومن على شاكلتهم ، لا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير ، وأن في أسلاخ معاوية وبنى أمية جريمة أى جريمة على الإسلام والمسلمين ، وأنه يخيس بالعهود ويجهز بالكبيرة جهرة المتبجحين وأنه ما لمعاوية وهذا الإسلام ؟ وأنه ينفي العنصر الأخلاق من سيرته ويجعل مال الله للرشى واللهمى وشراء الدم ، وأنه هو وبنو أمية آمنوا على حرف حين غلب الإسلام .

أما أبو سفيان رضى الله عنه ، فقد أسلم ليلة الفتح ، وأعطاه رسول الله من غنائم حنين كما أعطى سائر المؤلفة قلوبهم فقال له : والله إنك لأكريم فذاك أبى وأمى ، والله لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت ، ولقد ساءلتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيراً . ثم شهد الطائف مع رسول الله ، وفقت عينه في القتال ، ولآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخران ، ورسول الله لا يولى منافقاً على المسلمين ، وشهد اليرموك ، وكان هو الذى يحرض الناس ويحشهم على القتال . وقد ذكر الكاتب فيما استدلل به على إبطان أبى سفيان

النفاق والكفر أنه كان يستبشر بهزيمة المسلمين في يوم حنين ، وفي قتال المسلمين والروم فيما بعد ، وهذا باطل مكذوب . وسأذكر بعد تفصيل ذلك . أما قول أبي سفيان للعباس « لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ! » فقال العباس إنها النبوة ! فقال أبو سفيان : نعم إذن . فهذا خبر طويل في فتح مكة ، قبل إسلامه ، وكانت هذه الكلمة « نعم إذن » أول إيذان باستجابته لداعى الله ، فأسلم رضى الله عنه وليست كما أولها الكاتب : « نعم إذن . وإنها كلمة يسمعونها بأذنه فلا يفقهها قلبه ، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان » ، إلا أن يكون الله كشف له ما لم يكشف للعباس ولا لأبي بكر ولا لعمر ، ولا لأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار . وأعوذ بالله من أن أقول ما لم يكشف لرسول الله ونبيه صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ثلاثاً أعطينهن . قال : نعم . قال : تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما قاتلت المسلمين . قال : نعم . قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : نعم . وذكر الثالثة ، وهو أنه أراد أن يزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته الأخرى عزة بنت أبي سفيان ، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة فقال : « إن ذلك لا يحل لى » .

وأما هند بنت عتبة أم معاوية رضى الله عنهما فقد روى عن عبد الله بن الزبير (ابن سعد ٨ : ١٧١) قال : لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها وأتين رسول الله وهو بالأبطح فبايعه فتكلمت هند فقالت : يا رسول الله ! الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه . لتنفعى رحمك يا محمد ! إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله . ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله : مرحباً بك . فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يذكوا من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يعزوا من خبائك . فقال رسول الله : وزيادة قال محمد بن عمر الواقدي : لما أسلمت هند جعلت تضرب صنماً في بيتها بالقدم حتى فلذته فلذة فلذة وهى تقول : كنتاً منك في غرور . وروى البخارى هذا الخبر عن أم المؤمنين عائشة (٥ : ٤٠) . فهل يعلم عالم أن إسلام أبي سفيان وهند كان نفاقاً وكذباً وضغينة ؟ لا أدري . ولكن أئمتنا من أهل هذا الدين لم يطعنوا فيهم ، وارتضاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتضى إسلامهم . وأما ما كان من شأن الجاهلية ، فقل رجل أو امرأة من المسلمين لم يكن له في جاهليته مثل ما فعل أبو سفيان ، أو شبيه بما يروى عن هند إن ضحَّ .

وأما عمرو بن العاص ، فقد أسلم عام خير قدم مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية إلى ذات السلاسل يدعو بِلَيْتاً إلى الإسلام ، ثم استعمله رسول الله على عمان فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أقره عليها أبو بكر رضى الله عنه ثم استعمله عمر . وروى الإمام أحمد في مسنده (٢ : ٣٢٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤) من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ابنا العاص مؤمنان » يعنى هشاماً وعمراً . وروى الترمذى وأحمد في مسنده (٤ : ١٥٥) عن عقبة بن عامر الجهنى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص . وروى أحمد في مسنده (١ : ١٦١) عن طلحة بن عبيد الله قال : ألا أخبركم عن رسول الله بشيء ؟ ألا إني سمعته يقول : عمرو بن العاص من صالحى قريش . ونعم أهل البيت أبو عبد الله ، وأم عبد الله ، وعبد الله .

فإذا كان جهاد عمرو ، وشهادة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، وتولية رسول الله ثم أبى بكر ثم عمر ، لا تدل على شيء من فضل عمرو بن العاص ، ولا تدل على نفي النفاق في دين الله عنه ، فلا ندري بعد ما الذى ينفع عمرًا في دنياء وآخرته ؟ ولست أتصدى هنا لتزييف ما كتبه الكاتب من جهة التاريخ ، ولا من جهة المنهاج ، ولكنى أردت كما قلت أن أبين أن الأصل في ديننا هو تقوى الله وتصديق خبر رسول الله وأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا لعانين ولا طمانين ولا أهل إخفاش ، ولا أصحاب جرأة وتهجم على غيب الضمائر . وأن هذا الذى كانوا عليه أصل لا يمكن الخروج منه ، لا بحجة التاريخ ، ولا بحجة النظر في أعمال السابقين للعبرة واتقاء ما وقعوا فيه من الخطأ .

ولو صح كل ما يذكر مما اعتمد عليه الكاتب في تمييز صفات هؤلاء الأربعة ، وصفة بنى أمية عامة ، لكان طريق أهل الإسلام أن يحملوه على الخطأ في الاجتهاد من الصحابي المخطيء ، ولا يدفعهم داء العصر أن يوغلوا من أجل خبر أو خبرين في نفي الدين والخلق والضمير عن قوم هم لقرب زمانهم وصحبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولى أهل الإسلام ، بأن يعرفوا حق الله وحق رسوله ، وأن يعلموا من دين الله ما لم يعلمه مجترى عليهم طعان فيهم .

وأختم كلمتى هذه بقول النووى في شرح مسلم (١٦ : ٩٣) « اعلم أن سبب الصحابة رضى الله عنهم حرام من فواحش المحرمات ، سواء ، من لابس الفتن منهم وغيره ،

لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون . وقال القاضي : سب أحدهم من المعاصي الكبار . ومذهبنا ومذهب الجمهور أن يعزر ولا يقتل . وقال بعض المالكية يقتل » . وأسدى النصيحة لمن كتب هذا وشبهه أن يبرأ إلى الله علانية مما كتب وأن يتوب توبة المؤمنين مما فرط منه ، وأن ينزه لسانه ، ويعصم نفسه ، ويطهر قلبه ، وأن يدعو بدعاء أهل الإيمان « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » .

من أجل هذا أقول : إن خلق الإسلام ، هو أصل كل منهاج في العلم والفهم ، سواء كان العلم تاريخاً أو أدباً أو اجتماعاً أو سياسة . وإلا فنحن صائر إلى الخروج عن هذا الدين ، وصائر إلى تهديم ما بناه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى جعل تاريخ الإسلام حشداً من الأكاذيب الملفقة ، والأهواء المتناقضة ، والعبث بكل شيء شريف ورثناه إياه رحمة الله لهم وفتح الله عليهم ، ورضاه عن أعمالهم الصالحة ، ومغفرته لهم ما أساءوا رضى الله عنهم ، وغفر لهم ، وأثابهم بما جاهدوا وصبروا ، وعلموا وعلموا . وأستغفر الله وأتوب إليه .

طلب الدراهم من الحجارة !

قال أبو معاوية : لقد رأيتني أنضح أول النهار ، وأضرب آخر النهار على بطني بالمعول . فقليل له : لقد لقيت مؤونة ! قال : أجل ، إنا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة ، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا .

أخلاق

«... لست أدعوا يا صاحبي إلى صومعة ترتج دون الدنيا وراءها الأبواب... فلك عزلة الناسك الذي أهتمته نفسه من دون الناس، ففر بها ينشد لها وحدها الخلاص... ولو أصبح أهل الخير كلهم نسا كخلصت الحياة الدنيا للشياطين، ولا تمتد لعصار الشر إلى صوامع نسكهم فدار بها وبهم كما يهوى...» ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره :

ولأنما أردت أن تأخذ الأمور من أولها، وأن نكون صادقين صدق الذين أسلموا في حجر النبوة أول مرة... كان أحدهم يستمع إلى الدعوه في كلمات معدودات ليؤمن بها، ويمطيتها العهد ولموثق أن يعيش لها... ثم كانت آى السماء تترى بما يفطم النفس عن شهواتها، ويخرجها على المؤلف من عاداتها، فتجد هذا المؤمن الجديد (محزر العاطفة) لأمرها لا يأسره أمر عنها، منطلق الروح إلى مرضاة الله بها لا يفتنه عن ذلك هوى ولا شهوة.

حين بلغ الأولون هذا الصدق، وتحرروا لله من كل شيء، وجدت كلمة الله (فيهم) علمها الخافق في الناس «وكانوا أحق بها وأهلها»، وعاشت بهم دعوة سافرة، تبصر (بميونهم)، وتتحدث (بألسنتهم)، وترلز ما حوالها (بأخلاقهم)، وتضرب ضربتها (بأيديهم) : «قاتلوهم بعذبهم الله بأيديكم».

وكلمة الله يا صاحبي كلمة عالية، والدعوة إليها دعوة إلى خلقها العالى : «لأنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ؛ وهذا الخلق وحده هو صلة النسب بين أصحابها، وهو وحده آية صدقهم وحقيقة كرامتهم وإن برقت السيوف في أيديهم وأوتوا الدنيا بمخافيرها... لقد وقف (رسول الله) صلى الله عليه وسلم يخطب (جند الله) ليلة بدر فلم يكن إلا أن قال : «أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون وإنكم قد أصبحتم (بمنزل الحق) لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه...»

هذه يا صاحبي خطبة القتال في (معركة الإسلام الأولى)، ويجب أن تظل خطبة القتال في كل معركة للإسلام من بعد، إلا أن تكون قد صرفتنا عن (الإسلام) الصوارف، أو اختلط الأمر علينا فبعض أمرنا مسلم وبعضه غير مسلم... وهذا هو الذى خشيت ولا أزال أخشى... فإن سبيل الإسلام واحدة، وسبيل الشر متعددة : «ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» ! يا جند الله ! أرهفوا أسماعكم لكلمة الله وحدها — وتميزوا بأخلاقكم حتى لا يميزكم الناس إلا بها... واجعلوا سراكم على حذاء الوحى وحده، ولا تذهلنكم عن نوره الهادى بروق الليلة الشاتية !

الرسالة الإلهية والعقل الإنساني

لفضيلة الأستاذ الشيخ صادق إبراهيم عرجون

شيخ معهد سوق الدين

مكان الرسائل الإلهية من الحياة مكان العقل الإنساني من أفراد البشر ، والعقل هو المرشد الأول للإنسان ، يهديه إلى سواء الطريق ، وينير له ظلمات الوجود ، ويفتح أمامه مغاليق الكون ، ويسدده في مسيره ضاربا في بيداء الزمن حتى يقضى ما قدر له من بقاء .

وعلى قدر استعداد الفطري يكون كسبه من تجارب الحياة ، وعلى قدر ما يكسبه من تلك التجارب تكون فائدته ، وعلى قدر هذه الفائدة تكون مكانة الفرد في الجماعة ومكانه منها ، ومن ثم يتدخل العقل بوساطة الفرد في إرشاد الجماعة وهدايتها وتسديدها والسمو بها صعودا في مدارج الرقي والكمال .

وإذا كانت الحياة لم تعرف حداً لرقى الفرد في الجماعة البشرية ينتهي إليه فأحرى ألا يكون للجماعة نفسها حد تقف عنده في رقيها ؛ فالحياة متجددة ، والمعارف الإنسانية متزايدة .

والعقل البشري دائم العمل ، وخزائن الكون لاتزال مغلقة ، وأسراره مابرحت محجبة ، وحقائقه ما فتئت مجهولة .

وكيف يقف رقى الفرد أو الجماعة عند حد ؛ ومهمة العقل في الحياة هي كشف تلك الأسرار الكونية ، ومعرفة حقائق الوجود واستخدامها في إفادة الإنسانية ؛ ومن الغرور العقلي أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقربه من الكمال المقدور للبشرية . فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لا يزال أعظم بكثير جداً مما عرف . والذي عرف لا يزال الكثير منه مستخدماً في الحياة على غير جهته التي تفيد منها الحياة . فالجهاد أمام العقل واسع المدى فسيح الجنبات .

يبد أن هذه المعارف العقلية التي لا تنتهي عند حد في الأفراد والجماعات هي في الواقع المشهود محدودة المنزع ، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون .

وهنا يأتي دور من أدوار الرسائل الإلهية في قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة

ومطبوعها ومداخل الوجود ، وبواطن الحياة . بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوقها ؛ إلى الخالق جل شأنه ، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه ، وبالع حكمته ، وواسع علمه ، وهيمنة إرادته ، وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدل — مما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسنن متوافقة ، ومتافع متتابعة — على فضل الله ورحمته ولطفه وإحسانه وجوده وقهره وكبريائه ولطائف تدبيره .

وهذا مجال تنبيه وإرشاد تتجه فيه الرسائل الإلهية إلى مخاطبة العقل لتوجهه إلى تعرف جلال الكون وعظمة الوجود ، وخطر الحياة ليقف منها على وشائج التكوين والأبداع التي تصل المخلوق بالخالق وتربط بين أجزاء الوجود ، وتكشف عما طوى فيها من منافع واستجابات لرغبات الإنسان المادية والروحية .

وكما اتسعت معارف العقل من حقائق الكون ازدادت استجابات الحياة له وقوى سلطانه في تسخير قوى الطبيعة فيما يفيد النوع الإنساني ويرقى عناصره ويدعم قواه ويهيئ أمامه الفرص للتغلب على احتمال أعباء الحياة في ثقة واطمئنان .

وليس العقل الإنساني بمعصوم من الزلل والخطأ ، بل ربما كان من الحق أن يقال إنه كثير الخطأ والزلل ، ولا سيما إذا ضعف أمام الغرائز والقوى الحيوانية واستجاب لها وانعاضها ، وخضع لسلطانها فإنه حينئذ يصبح أداة طيعة لهوى تلك الغرائز وعبداً لشهواتها تتحكم فيه وتوجهه في طريق أغراضها وتصبح معارفه وسيلة من وسائلها في تلوين الحياة كما تشتهي وتريد .

وتاريخ الحياة والأحياء يدل على أن سلطان الغريزة كان أقوى في الأفراد والجماعات من سلطان العقل ، ويدل على أن الحياة أسرع استجابة لنداء الغريزة من منطق العقل وألس قياداً في يد الغريزة منها في يد العقل ، والغرائز في الإنسان شبيهة ببعضها البعض في مطالبها وغاياتها ، ولكنها تختلف في الأفراد قوة وضعفاً ، وظهوراً وكموناً ، وليس العقل الإنساني على هذا الغرار في أفراد الإنسان ، فهو يختلف فيهم أشد الاختلاف ، ولما يتفق عقل وعقل ، فاتفاق الغرائز في الغايات يكسبها قوة في مطالبها وتنفيذ أغراضها ، واختلاف العقول يوهن من سلطان العقل على الغرائز ، والغرائز منافذ للقوى المادية تنفس منها ، ومن ثم نراها تشتط في تنفيذ رغائب الجسد ، وتحاول أن توجه قوى الحياة — حتى العليا منها — إلى مقاصد مادية ، لا وزن عندها للقيم الخلقية من العدل والرحمة والإيثار إلا إذا كانت وسيلة لنفع مادي وقضاء شهوة جسدية ،

فالظلم والقسوة والأثرة في لغة الغرائز ومنطق المادة الصماء تساوي العدل والرحمة والإيثار في كثير من الأحيان والأوقات .

فالغرائز إذا انطلقت على سجايها وتغلبت على العقل كيفت أعمال الأفراد والجماعات على حسب ميولها وهواها ، وخلعت على تصرفات الأشخاص والأشياء نعوتا من لغتها حتى تصبح القوة هي الميزان الأعلى في سرعة الحياة ، ولا فرق بين أن يكون هذا الميزان منصوباً على حشائش الأجراس والأدغال وعلى أبواب الكهوف والغيران ، أو موضوعاً على بساط من سندس الحضارة الزائفة الملونة بدماء الضعفاء .

وهنا يأتي دور آخر للرسالات الإلهية هو دور إيقاظ العقل من ذهول سطوة الغرائز وإفساح المجال أمامه لتنظيم رغائبها في صورة تخضعها لموازين الأخلاق ، وإعطاء الفضائل قيمتها في الحياة ووضع الرذائل في مواضعها منها حتى تقاس كل فضيلة أو رذيلة في أعمال الأفراد والجماعات بمقياسها العادل الذي لا يعرف الغش والخداع .

فالدور الأول للرسالات الإلهية دور قيادة وتعليم ، ومجالها في هذا الدور هو الحقائق الكلية والمعارف العليا ، فهي التي تنبئ عن الغيب وتكشف عن حقائقه في صور وأمثال تقرّبها إلى الواقع المشهود حتى تكون دانية إلى مجال العقل ومدركاته وهي التي تتحدث عن الخالق ونعوت كماله ، وعن فيض الحياة من خزائن رحمته ، وعن عوالم السماء والأرواح ، وعن الوحي والنبوة ، وعن نظام الكون وقوانين ترابطه ، وعن الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب . ولا سبيل للعقل وحده إلى إدراك هذه الحقائق إدراكاً يتجاوب صداه مع الواقع الغيبي في هذا المجال ؛ لأن الغيب محجوب عن الحس ، والحس بأدواته المادية هو المشكاة التي يستضيء بمصباحها العقل ، فهتدى إلى أوليات من الحقائق يحمل عليها مثيلاتها بضرب من القياس والتشبيه ، ومن هذه الحقائق تتولد القضايا العقلية المنترعة من الوجود المشهود انتزاعاً مباشراً أو غير مباشر .

فالعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون خاضعاً للرسالات الإلهية ، آخذاً عنها وهي التي تلمه وترشده وتهديه ، فإذا استجاب لها أمن العثار والزلل وإذا تأبى عليها وقع في أغلال الغرائز ، وانقلب عمله إلى استجابات مادية تصب المعارف العليا في قوالب وثنية تعتمد على التشبيه والتصوير ؛ وتاريخ الفلسفات والأديان ملئ بالشواهد الصادقة على ذلك .

أما الدور الثاني للرسالات الإلهية فهو دور مؤاخاة العقل ومظاهرتة ؛ حتى يتغلب

على جموح الغرائز ويكفكف من حدتها ، ويظامن من غرورها ، ويقلل من اندفاعها ويوجهها وجهة صالحة دون كبت يميئها أو انطلاق يفسدها .

وبحال هذا الدور هو الحياة الواقعية التي يحياها الأفراد والجماعات ، وتحديد علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالجماعة ، بل علاقة الفرد والجماعة بالحياة والأحياء وتنظيم هذه العلاقات على أسس من العدل تعطى لكل ذي حق حقه وتشيع بين الأحياء الثقة والاطمئنان والتعاطف والتواصي والمحبة والأخاء .

والعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون هو المسيطر على الغرائز ، يقودها بحكمته ويوجهها بسياسته ، والرسالات الإلهية هي المرشد العليم ، والمستشار الأمين ، والناصح الحكيم ، وعلى ضوء إرشادها ونصحها ومشورتها يسير العقل في طريقه مؤديا واجبه على أكمل وجه في الحياة .

ولقد مرت الإنسانية بأطوار متعددة اختلفت عليها في تلك الأطوار الرسالات الإلهية فكانت فيها معالم للتاريخ على تلك الأطوار ، وكانت كل رسالة في الغالب مبدأ لطور ونهاية لآخر ، وقد احتفظت تلك الرسالات بخصائص ومميزات هي في الواقع خصائص ومميزات الأطوار التي ساريتها . ومن تلك الخصائص يعرف نصيب العقل الإنساني من تلك الأطوار ؛ فهو مولود مع الإنسانية وخاضع لما تخضع له من حكم التدرج في طريق الاكمال .

وكما مرت الإنسانية في مرحلة الطفولة الغريزة محكومة بالغرائز المنطلقة مرّة معها العقل الإنساني في هذه المرحلة منطلقا مع الغرائز يفتح لها أبواب المادية المجنونة الجائفة وجاءت الرسالات الإلهية في هذا الطور توحى إلى الحقائق العليا ولا تفصح ، وترمز ولا تصرح تمثيا مع طاقة الإنسانية الساذجة ، وحالة الطفولة التي يمر العقل في مرحلتها في هذا الطور من أطوار التاريخ البشرى .

واستعراض الصور الجدلية التي يقصها التاريخ ، وتحدثنا بها كتب الرسالات الإلهية عن أوائل الأنبياء ومتقدميهم في الزمن : كنوح وهود وصالح مع أنهم تدلنا على أن العقل البشرى وقتئذ كان مدثراً في مهاد الطفولة محاطا بالغرائز .

وكان هؤلاء الرسل الكرام ممن قص الله علينا سيرتهم قد ضاقوا ذرعا بهذه البلادة العقلية .

وذلك التعب الدليل للغرائز العمياء التي تستلهم المادة في أغراضها وتستوحى

الأرض في مطالها ، وتتصامم عن صوت السماء حتى إذا استيأسوا وظنوا أن منافذ الأمل في إيقاظ العقل قد سدت ، وأبواب الرجاء في تخليصه من سيطرة الغرائز وسلطان الطين قد أقفلت ، وأن رواسب الطبيعة الكثيفة عَدَّتْ على أوائل الفطرة البقية فمسختها الحادا لا ينفى إلى إيمان ، وسرى دم الآباء والأجداد في شرايين الأبناء والأحفاد ، تبينا للحكمة الإلهية في اعتقاب داء العقول لمظاهرها في الأفراد حتى يصبح ذلك الداء العقيم هو داء الجماعة العصى ، وتحقيقا للورثة الروحية المنحدرة من الأصول إلى الفروع طلبوا التطهير العام والافناء المستأصل إيدانا بطور جديد من أطوار الإنسانية يتجدد به ميلادها ، وتتجدد به بذرة الانبات لجيل جديد لم تفسده أضرار التقليد الأبله ، ويحمل عقلا شب عن الطوق ، وتهايا للتغلب على طراءة الطفولة والتفلت من أغلال الغرائز ونير المادية واستعد لفهم لغة الأرواح وأحاديثها عن عوالم الغيب وموازين الأخلاق ، فكانت النهاية التي لا بد منها (وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) واستجاب الله ومضى القدر ، وتمت النهاية واستفتحت الحياة طورا جديداً كان فيه الإنسان قد فتح عينيه على نجوم السماء وآياتها فأخذ بريقها بعقله ، فألقى إليها يديه وألَّهها وتعبَّد لها ، فجاءت إليه رسالة إبراهيم عليه السلام تخاطبه متدرجة به في مرحلة المعارف العليا لتقوده — مستعينة بالحس الذي كان لا يزال له المكان الأول في مدركاته — إلى آفاق الحقائق الكلية وعوالم التجريد ، وقد صور لنا القرآن الكريم ذلك أبداع وأوجز تصوير في قوله تعالى : (فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون) .

الكواكب الزاهرة والقمر المنير في دجى الليل ، والشمس المشرقة هي أول ما يأخذ بأبصار المقيد بأغلال الحس والمشاهدة ، وأول ما يلفت نظرهم في عوالم السماء ، وهي كائنات فوق عالم الطين ، وعوالم الأرض ، لها فيها آثارها ، ولها عليها جلالها وقوتها ، لكنها تأفل وتغيب عن الحس فيذهب أثرها ، وتمحى قوتها ويتبدد جلالها الذي يهر الحس . والربوبية كمال أزل لا يجوز عليها الأفول ولا يعترها التغير ، بل يجب أن تكون مظاهر وجودها على الكون سابعة وسلطانها على الخليفة مبسوطا تمنح كل موجود عناصر وجوده وتعطيه مقومات حياته ؛ إليها وحدها يكون التظامن

والخضوع ، والتعبد والخشوع (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيها وما أنا من المشركين) .

ولقد كان للعقل الإنساني في هذا الطور من أطوار الحياة ومضات ، إذا نهته الرسالة الإلهية تنبه وأشرق بنور الحق من خلال تلك الومضات ولكن في سرعة خاطفة ، وإذا غلبت عليه كثافة الغرائز المتحكمة نكص على عقبيه وعاد كأن لم يبصر من الحق شيئاً ، وهذا ما صورته القرآن الكريم أبرع تصوير في هذه المحاورة بين منطق الحق والإيمان على لسان الرسالة الإلهية ، وبين منطق الضلالة والحيرة على لسان عبيد الغرائز العمياء ، في قوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده ... إلى قوله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) وهو تصوير يمثل مغالبة الطبيعة الحالكة للعقل الحبيس مع قارعات الحجج الإلهية ، ودوايات النذر لم تجرد من العقل إلا يقظة المغلوب ؛ فلم يبق للرسالة الإلهية إلا الأسف الحزين : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون)

كان تعبد العقل للغرائز البلهاء في أمة (نوح) عليه السلام تعبدا شاملا لم يترك للعقل منفذا ينظر منه للحياة غير منافذ تلك الغرائز المادية المظلمة ، فكان جزاؤها الفناء العام تحقيقا لحكمة التطهير والوقاية من داء البلادة الوراثية ، وكانت الإنسانية على عهد إبراهيم عليه السلام قد استقبلت من أمر العقل عقلا ناشئا لم ينضج ولم يتحرر تحررا منطلقا ، فكان إذا كشفت له الرسالة الإلهية الغطاء أبصر إبصار الأرمدم ، ثم عاد إلى مكانه حسيرا يتطلع إلى نور الهداية الذي ظل يهاده ويواصله في صور متعددة ومن هنا يلحظ التأمل في تاريخ الرسالات الإلهية أن هذا الطور من أطوار الإنسانية كان أحظى أطوارها بمطالع الرسالات تمكينا للأسباب والدوافع من إنضاج الفطرة في دور مرهقة العقل وتعبد للنزوات المادية في أشكالها المختلفة ؛ حتى يتها العقل للانطلاق من سجن الغرائز بالغا رشده ناظراً إلى السماء وعوالمها ، قادرا على إدراك المعارف العليا من عالم الغيب والنبوات ، والوحي والحياة الآخرة والأرواح . وفي هذا الطور حفل التاريخ البشري بأعمال عقلية ضخمة ، سجلها فيما ادخره من تراث الفلسفة الإغريقية التي خرجت نخبة من قادة الفكر في الحياة ، وفي هذا الطور بدأت الرسالات الإلهية تواخي بين الحقائق العليا من المعارف الكونية وبين أمور الحياة الواقعة والحوادث الجزئية التي تحيا مع الناس ويحيا الناس معها فتحدثت التوراة عن الخالق جل شأنه وعن الكون ، وعن النبوة والأنبياء والوحي والملائكة ، وعن الحياة الآخرة وعن الثواب والعقاب ، وعن علاقة الخلق بالخالق وعلاقات الناس بعضهم ببعض

في حياتهم التي يتقلبون فيها ، ونحو هذا من القضايا والتشريعات التي لم تفصح عنها الرسالات السابقة .

يبد أن أسلوب التوراة في التعبير عن ذلك كله كان أسلوباً يعتمد على الحس وتغمره الأمثلة والصور المادية ويقل فيه المنطق الروحي القائم على التجريد ، وذلك مراعاة لأثر الرواسب الفرزية المستخفية في داخل الطبيعة البشرية مما كان يطفّر إلى سطح الحياة في غفلة من العقل كما تطفّر فقاعات الهواء الفاسد التي تنفّس عنها حياض المستنقعات ، وكان جيل بني إسرائيل هو المرآة التي ظهرت فيها تلك الصور ، فهو جيل عرف من الحقائق العليا ما لم يعرفه غيره ممن سبقه من الأمم ، وهو جيل خاطبت فيه الرسالات الإلهية العقل وشرّعت له ، وهو نفسه الجيل الذي تلبّد عقله وأنكر معارفه العليا في لحظة استعلّى فيها سلطان الغريزة فحجبه عن السماء وجذبه إلى الأرض ونسى ماضيه القريب .

والقرآن الكريم يصور ذلك تصويراً بارعاً في قوله (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) فليس إلا مجاوزة البحر بهم ، وكانوا قبل هذه المجاوزة المثل المضروب في عرفان الحقائق العليا ، وتوحيد الله ونعوت كماله ، فنسوا ذلك كله ، وعادوا كأخبيث ما كانت طبيعة بليدة مظلمة ، وكأضعف ما كان عقل مستعبد للمادة العمياء .

أما التشريع للحوادث الواقعة في الحياة اليومية التي تربطهم بالناس وتربط الناس بهم فقد أحالته غرائزهم المسعورة إلى رسوم استغلالية لا تقيم وزناً للقيم الخلقية ولا تعرف فيصلاً بين فضيلة ورذيلة سوى المنفعة الذاتية مهما كانت وسيلتها ؛ ولذلك جاءهم الانجيل ترنيمات زاهدة خاشعة مترهبة متصوفة لتهدئة فورة الغرائز وتخفيف ثورتها ولكن طبيعتهم المتمردة لم تألف تلك الترنيمات ولم ينسجم وقعها في قلوبهم فمسخوها وثنيات سخيفة أنكرها العقل الذي بلغ في الطور من أطوار الإنسانية رشده وتكاملت خصائصه ، فاشترأب إلى مكانه من الحياة ، وتطلع ينظر في شوق إلى السماء لسمع من آفاقها النداء برسالة إلهية كاملة شاملة تقوده إلى آفاق المعارف الكونية العليا وأسرار الوجود ونظم الحياة ، فكانت تلك الرسالة هي الرسالة المحمدية خاتمة الشرائع الإلهية على يد محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين .

النشريع الجنائي الإسلامي

للأستاذ عبد القادر عوده

(٣)

١٥ — المساحقة : وتسمى السحق والتدالك ؛ وهي إتيان المرأة المرأة والفعل متفق على تحريمه لقول الله تعالى « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » فصح بالدليل من القرآن والإجماع أن المرأة لا تحل للملك يمينها ، وأنه منها ذو محرم ؛ حيث أسقط الله الحجاب عن أمهات المؤمنين عن عبيدهن مع ذى محارمن من النساء فصار العبد مع سيده ذا محرم ؛ فإذا أباحت المرأة فرجها لغير زوجها من امرأة أو رجل فهي لم تحفظه . ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يُفَضُّ الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفض المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد » وهذا النص صريح في تحريم السحاق لأنه إفشاء المرأة إلى المرأة ، ولقوله أيضاً « إذا أنت المرأة المرأة فهما زانيتان » .

ومن المتفق عليه أن لا حد في الفعل وأن عقوبته التعزير لأنه معصية لا حد فيها وإذا كان النص قد وصف الفعل بأنه زنا فإن ذلك لا يلحقه بالزنا المعاقب عليه بالحد لأن السحاق مباشرة دون إيلاج ، والزنا المعاقب عليه بالحد يقتضي الإيلاج فكان السحاق مما يجب فيه التعزير لا الحد كما لو باشر الرجل المرأة دون الفرج أى دون إيلاج (١)

١٦ — وطء الصغير أو المجنون امرأة أجنبية : لاحد على الصغير أو المجنون في وطء

المرأة الأجنبية لعدم أهليتهما إذ الصغير لا يؤخذ بالحد إلا بعد بلوغه والمجنون لا يؤخذ به إلا في حال إفاقته ؛ على أن الصغير يعزر على الفعل إذا كان مميزاً .

(١) شرح الزرقاني ٨ ص ٧٨ - شرح فتح القدير ٤ ص ١٥٠ - نهاية المحتاج ٧ ص ٤٠٤ - المهذب ٢ ص ٢٨٦ - المغني ١٠ ص ١٦٢ - المحلى ١١ ص ٣٩٠ - ٣٩٢ - شرح الأزهار ٤ ص ٢٣٦ .

وقد اختلف في حكم المرأة التي يطأها الصبي أو المجنون ؛ فرأى أبو حنيفة أن المرأة التي يطأها الصبي أو المجنون لا حد عليها ولو كانت مطاوعة وإنما عليها التعزير ، وحجته أن الحد يجب على المرأة ليس لأنها زانية فإن فعل الزنا لا يتحقق منها إذ هي موطوءة وليست بواطئة وتسميتها في القرآن زانية مجاز لا حقيقة ؛ إنما يجب عليها الحد لكونها مزنياً بها ، ولما كان فعل الصبي والمجنون لا يعتبر زناً عند أبي حنيفة فلا تكون مزنياً بها (١) .

ويرى مالك رأى أبي حنيفة في حالة ما إذا كان الواطئ صبياً ، ولكنه يرى حد المرأة إذا طاوعت المجنون ، وحجته في هذه التفرقة أن المرأة تنال لذة من المجنون ولا تنال من الصبي (٢) .

أما الشافعي فيرى أن تحد المرأة في الحالين ولو لم يعاقب الصبي والمجنون ، لأن العقاب امتنع عن الصبي والمجنون لمعنى يخصه هو فليس للمرأة — وقد ارتكبت الجريمة — أن تستفيد من ظروف شريكها الخاصة ، وعلى هذا الرأي الظاهريون والزيديون (٣) .

ويرى زُفر من أصحاب أبي حنيفة رأى الشافعي وهو رواية عن أبي يوسف وحجتهما أن كلا من الزاني والزانية مؤاخذ بفعله وقد فعلت المرأة ما هي به زانية لأن حقيقة زناها انقضاء شهوتها بآلته وقد وجد ذلك (٤) .

وفي مذهب أحمد رأيان أرجحهما يتفق مع مذهب الشافعي ، والثاني يفرق كمذهب مالك بين ما إذا كان الواطئ صبياً أو مجنوناً ، ويرى أصحاب هذا الرأي الثاني أن تحد امرأة إذا طاوعت المجنون ولا تحد إذا وطئها صبي لم يبلغ سنه عشر سنوات فإن بلغ هذه السن حُددت . ويؤخذ على هذا الرأي أنه قائم على تحديد السن والتحديد إنما يكون بالتوقيف أي بنص ولا توقيف في هذا (٥) .

١٦ — وطء العاقل البالغ صغيرة أو مجنونة : واختلف أيضاً في وطء العاقل

البالغ لصغيرة أو مجنونة فيرى مالك أن الواطئ يحد لإتيان المجنونة الكبيرة ، ويحد كذلك لإتيان الصغيرة مجنونة أو غير مجنونة كلما أمكنه وطؤها ، ولو كان الوطء غير ممكن لغيره ، فإذا لم يكن وطء الصغيرة ممكناً للواطئ فلا حد وإنما يعزر على الفعل (٦) .

(١) شرح فتح القدير > ٤ ص ١٥٦ — بدائع الصنائع > ٧ ص ٣٤ .

(٢) شرح الزرقاني > ٨ ص ٧٨ .

(٣) أسنى المطالب > ٤ ص ١٢٨ — المحلى > ١١ ص ١٥٦ — شرح الأزهار > ٤ ص ٣٣٨ .

(٤) شرح فتح القدير > ٤ ص ١٥٦ .

(٥) المنى > ١٠ ص ١٥٢ .

(٦) شرح الزرقاني > ٨ ص ٧٦ .

ويرى أبو حنيفة وأصحابه أن العاقل البالغ إذا زنى بمجنونة أو صغيرة يجمع مثلها وجب عليه الحد لأن فعله زنا ولأن العذر من جانبها لا يوجب سقوط الحد من جانبها^(١) ويختلف مذهب مالك عن مذهب أبي حنيفة في أن مالكا يجعل الحد منوطاً بإمكان الجنائي وطء الصغيرة ولو كان مثلها لا يجمع ، أو لو كان الوطء غير ممكن لغيره ، بينما يجعله أبو حنيفة منوطاً بضلاحية الصغيرة للجماع بصفة عامة . ويتفق مذهب الشيعة الزيدية مع مذهب أبي حنيفة^(٢) .

ويرى الشافعي حد العاقل البالغ إذا زنى بمجنونة أو صغيرة ما دام الوطء قد حدث فملا ولا يقيد العقوبة بأي قيد^(٣) وهذا هو ظاهر مذهب الظاهريين^(٤) .

وفي مذهب أحمد رأيان يتفق أحدهما مع مذهب الشافعي ، أما الثاني فيخالفه في حالة وطء الصغيرة مجنونة أو غير مجنونة ، ويفرق أصحاب هذا الرأي بين ما إذا كانت الصغيرة يمكن وطؤها أو لا يمكن ، فإن كان الوطء ممكناً فهو زنا يوجب الحد لأنها كالكبيرة في ذلك ، وإن كانت الصغيرة لا تصلح للوطء ، فلا حد على من وطئها وإنما عليه التعزير ، وبعض أصحاب هذا الرأي يحدد سن الصغيرة التي لا تصلح للوطء بتسع سنوات وحجته أن الصغيرة لا تشتهى في هذه السن وأن وطأها يشبه ما لو أدخل إصبعه في فرجها^(٥) .

والقائلون بحد المرأة إذا وطئها صبي أو مجنون وبحد الرجل إذا وطئ مجنونة أو صبية يتفق رأيهم مع نص المادة « ٣٩ » من قانون العقوبات المصري وهي تقضى بأن الظروف الخاصة بأحد الفاعلين لا يتعدى أثرها إلى غيره منهم . على أن القائلين بالرأي المضاد لا يخالفون هذا المبدأ لذاته ولكنهم يطبقون الحديث المشهور : « إدروا الحدود بالشبهات » فهم يرون أن الجريمة لا تقع إلا من اثنين بطبيعة الحال ولا يمكن أن تتم إلا باجماعهما ، ويرون في إعفاء أحدهما من العقوبة شبهة في حق الآخر تدعو إلى درأ الحد عنه والاكتفاء بتعزيره .

١٨ — الوطء بشبهة : لا يصحح الظاهريون ما روى عن رسول الله صلى الله عليه

(١) شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٦ .

(٢) شرح الأزهري ج ٤ ص ٣٣٨ .

(٣) أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٨ .

(٤) المحلى ج ١١ ص ١٥٦ ، ٢٥٦ .

(٥) المغني ج ١٠ ص ١٥٢ .

وسلم من قوله « ادروا الحدود بالشبهات » ولذلك فهم يرون أن الحدود لا يحل أن تدرك بشبهة ولا أن تقام بشبهة وإنما هو الحق لله تعالى ولا مزيد ، فإن لم يثبت الحد لم يحل أن يقام بشبهة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام » وإذا ثبت الحد لم يحل أن يدرك بشبهة لقول الله تعالى « تلك حدود الله فلا تعتدوها » (١)

أما باقي الفقهاء فيصححون حديث « ادروا الحدود بالشبهات » وهم متفقون على أن الوطء بشبهة لا حد فيه ولكنهم اختلفوا فيما يعتبر شبهة ، وأساس الخلاف في اعتبار الشبهة هو الاختلاف في التقدير فيرى البعض أن حالة مغينة تعتبر شبهة ويرى البعض أنها لا تعتبر كذلك .

والشبهة هي ما يشبه الثابت وليس بثابت (٢) . وقد اهتم الحنفيون والشافعيون بتقسيم الشبهة وتنويعها بينما لم يهتم غيرهم من الفقهاء بهذا الأمر ، واكتفوا بإيراد ما يعتبر شبهة وعللة اعتباره شبهة ، على أن الشبهات عند الجميع لا يمكن حصرها لأن أساسها في الغالب الوقائع وهي لا تحصر .

ويقسم الشافعيون الشبهة إلى ثلاثة أقسام : —

١ — شبهة في المحل : كوطء الزوجة الحائض أو الصائمة أو إتيان الزوجة في دبرها فالشبهة هنا قائمة في محل الفعل المحرم ، لأن المحل مملوك للزوج ومن حقه أن يباشر الزوجة ، وإذا لم يكن له أن يباشرها وهي حائض أو صائمة أو أن يأتيها في الدبر ، إلا أن ملك الزوج للمحل وحقه عليه يورث شبهة ، وقيام هذه الشبهة يقتضى درء الحد سواء اعتقد الفاعل بمحل الفعل أو بحرمة ، لأن أساس الشبهة ليس الاعتقاد والظن وإنما أساسها محل الفعل وتسلط الفاعل شرعا عليه .

٢ — شبهة في الفاعل : كمن يظن امرأة زفت إليه على أنها زوجته ثم تبين أنها ليست زوجته ، وأساس الشبهة ظن الفاعل واعتقاده بحيث يأتي الفعل وهو يعتقد أنه لا يأتي محرما ، فقيام هذا الظن عند الفاعل يورث شبهة يترتب عليها درء الحد ، فإذا أتى الفاعل الفعل وهو عالم بأنه محرم فلا شبهة .

٣ — شبهة في الجهة أو الطريق : ويقصد من هذا التعبير الاشتباه في حل الفعل وحرمة ، وأساس هذه الشبهة الاختلاف بين الفقهاء على الفعل ، فكل ما اختلفوا

على حله أو جوازه كان الاختلاف فيه شبهة يدرء بها الحد ؛ فمثلا يجيز أبو حنيفة النكاح بلا ولي ، ويجيز مالك النكاح بلا شهود ، ويجيز ابن عباس نكاح المتعة ، ومن ثم فلا حد على الوطء في هذه الأنكحة المختلف عليها ؛ لأن الخلاف يقوم شبهة تدرأ الحد ، ولو كان الفاعل يعتقد بجرمة الفعل لأن هذا الاعتقاد في ذاته ليس له أثر مادام الفقهاء مختلفين على الحل والحرمة (١) .

ويقسم الحنفيون الشبهة إلى قسمين :

الأول : الشبهة في الفعل (٢) ويسمونها شبهة اشتباه وشبهة مشابهة وهى شبهة في حق من اشتبه عليه الفعل دون من لم يشتبه عليه . وثبتت هذه الشبهة في حق من اشتبه عليه الحل والحرمة ، ولم يكن ثمة دليل سمعى يفيد الحل بل ظن غير الدليل دليلا كمن يظن زوجته المطلقة ثلاثا أو بائنا على حال في عدتها ، وتعليل ذلك أن النكاح إذا كان قد زال في حق الحل أصلا لوجود المبطل لحل المحلية وهو الطلاق فإن النكاح قد بقي في حق الفراش والحرمة على الأزواج فقط ومثل هذا الوطء حرام فهو زنا يوجب الحد إلا إذا ادعى الواطئ الاشتباه وظن الحل لأنه بنى ظنه على نوع دليل وهو بقاء النكاح في حق الفراش وحرمة الأزواج فظن أنه بقي في حق الحل أيضا هذا وإن لم يصلح دليلا على الحقيقة لكنه لما ظنه دليلا اعتبر في حقه درأ لما يندرى بالشبهات .

ويشترط لقيام الشبهة في الفعل أن لا يكون هناك دليل على التحريم أصلا وأن يعتقد الجانى الحل ، فإذا كان هناك دليل على التحريم أو لم يكن الاعتقاد بالحل ثابتا فلا شبهة أصلا ، وإذا ثبت أن الجانى كان يعلم بجرمة الفعل وجب عليه الحد (٣) .

الثانى : الشبهة في الحل ويسمونها الشبهة الحكمية أو شبهة الملك وينبغى أن يكون الثابت منها شبهة حكم الشرع بحل الحل ، فيشترط في هذه الشبهة أن تكون ناشئة عن حكم من أحكام الشريعة وهى تتحقق بقيام دليل شرعى ينفي الحرمة ولا عبرة بظن

(١) أسنى المطالب ٤ ص ١٢٦ .

(٢) يمحصر الحنفيون شبهة الفعل في جريمة الزنا في ثمانية مواضع منها وطء المطلقة ثلاثا في العدة أو بائنا على حال وكذا المختلعة وبقية المواضع خاصة بالجوارى ولا محل للتعرض لها بعد إبطال الرق . وبقية الفقهاء يخالفون الحنفيين ولا يرون شبهة في هذه المواضع الثمانية ومن ثم فهم لا يفرقون بشبهة الفعل في جريمة الزنا - راجع الزرقاني ثامن ص ٧٧ - ومواهب الجليل ٦ ص ٢٩٢ - وأسنى المطالب ٤ ص ١٢٧ والمغنى ١٠ ص ١٥٤ .

(٣) شرح فتح القدير ٤ ص ١٤٠ - ١٤٤ - بدائع الصنائع ٧ ص ٣٦ .

الفاعل فيستوى أن يعتقد الفاعل الحل أو يعلم الحرمة لأن الشبهة ثابتة بقيام الدليل الشرعى لا بالعلم وعدمه .

ويحصر الحنفيون شبهة الحل في جريمة الزنا في ستة مواضع أحدها وطء المطلقة طلاقاً بائناً بالكنايات وبقية المواضع خاصة بوطء الجوارى ولا محل للتعرض لها بعد إبطال الرق . ويعلمون قيام الشبهة في وطء المطلقة بائناً بالكنايات أن زوال الملك بالإبانة وسائر الكنايات مجتهد فيه لاختلاف الصحابة رضى الله عنهم والمعروف عن عمر أنه كان يقول في الكنايات إنها رواجع والطلاق الرجعى لا يزيل الملك فاختلفوا فهم أوردت شبهة (١) والشافعيون والحنابلة من رأى الحنفيين في وطء المطلقة بائناً في الكنايات أما المالكيون فيرى بعضهم الرأى السابق ويرى البعض أن لا شبهة في هذا الوطء (٢) .

ويرى أبو حنيفة أن الشبهة تثبت أيضاً بالعقد ولو كان العقد متفقاً على تحريمه وكان الفاعل عالماً بالتحريم وبالاتفاق عليه كما هو الحال في نكاح المحارم فالشبهة إذن على رأى أبي حنيفة ثلاثة أنواع : شبهة في الفعل ، وشبهة في الحل ، وشبهة في العقد ، ولكن أصحابه لا يقولون بالنوع الأخير أى بشبهة العقد (٣) وهم في هذا يتفقون مع ما يراه بقية الفقهاء .

١٩ — وطء المحارم : ووطء المحارم زناً يجب فيه الحد بالإجماع ، فإذا تزوج شخص ذات محرم منه فالنكاح باطل اتفاقاً ، فإن وطئها فعليه الحد في قول مالك والشافعى وأحمد والظاهرية والزيدية ويأخذ بقولهم أبو يوسف ومحمد من أصحاب أبي حنيفة .

ولكن أبا حنيفة نفسه يرى أن من تزوج امرأة لا يحل له نكاحها كأمه أو ابنته أو عمته فوطئها لم يجب عليه الحد ولو اعترف بأنه يعلم بأنها محرمة عليه وإنما عقوبته التعزير ويسقط أبو حنيفة الحد في هذه الحالة للشبهة ، ويان الشبهة أنه قد وجدت صورة المبيح وهو عقد النكاح الذى هو سبب للإباحة ، فإذا لم يثبت حكمه وهو الإباحة بقيت صورته شبهة دائرة للحد الذى يندرى بالشبهات .

ويُرد على أبي حنيفة بأن الوطء حدث في فرج مجمع على تحريمه من غير ملك

(١) المرجعين السابقين .

(٢) مواهب الجليل ج ٦ ص ٢٩٢ — أسنى المطالب ج ١٠ ص ١٢٧ المغنى ص ١٥٤ — الإقناع

ج ٤ ص ٢٥٤ .

(٣) شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٤٣ .

ولا شبهة ملك ، والواطىء من أهل الحد عالم بالتحريم فلا عذر له ويلزمه الحد ، أما العقد فهو باطل ولا أثر له مطلقا فهو كأن لم يوجد ، وصورة المبيع إنما تكون شبهة إذا كانت صحيحة (١) .

٢٠ — الوطء في نكاح باطل : — وكل نكاح يجمع على بطلانه — كنكاح خامسة أو متزوجة أو معتدة أو نكاح المطلقة ثلاثا — إذا وطئ فيه فهو زنا موجب للحد المشروع فيه قبل العقد ، ولا عبرة بوجود العقد ولا أثر له وبذلك قال مالك والشافعي وأحمد والظاهرية والزيديون وهو ما قال به أبو يوسف ومحمد صاحب أبي حنيفة (٢) ولكن أبا حنيفة يرى أن وجود العقد شبهة تدرأ الحد ومن ثم فعقوبة الوطء عنده هي التعزير (٣) .

٢١ — الوطء المختلف فيه : ولا يجب الحد في نكاح مختلف فيه . كنكاح المتعة والشفار والتحليل والنكاح بلا ولى ولا شهود ونكاح الأخت في عدة أختها البائن ونكاح الخامسة في عدة الرابعة البائن لأن الاختلاف في الوطء شبهة والحدود تدرأ بالشبهات إلا عند الظاهرين فإنهم لا يسمونه بالشبهة ومن ثم فهم يرون الحد في كل ووطء قام على نكاح باطل أو فاسد (٤) .

(١) راجع في كل ما سبق شرح الزرقاني ٨ ص ٧٦ — شرح فتح القدير ٤ ص ١٤٧ — أسنى المطالب ٤ ص ١٢٧ — المغنى ١٠ ص ١٥٢ — المحلى ١١ ص ٢٥٦ — شرح الأزهار ٤ ص ٣٤٨ .

(٢) شرح الزرقاني ثامن ص ٨٦ ، ٧٧ — شرح فتح القدير ٤ ص ١٤٣ أسنى المطالب ٤ ص ١٢٧ — المغنى ١٠ ص ١٥٤ — المحلى ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ — شرح الأزهار ٤ ص ٣٤٨ .

(٣) شرح فتح القدير ٤ ص ١٤٣ ، ١٤٨

(٤) شرح الزرقاني ثامن ص ٧٥ — شرح فتح القدير ٤ ص ١٤٨ — أسنى المطالب ٤ ص ١٢٦ — المغنى ١٠ ص ١٥٥ — المحلى ١١ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ — شرح الأزهار ٤ ص ٣٤٨ .

استغلال الأرض في الإسلام

الأستاذ محمود أبو السعد

مستشار بنك الدولة في الباكستان

(٢)

الملكية في الإسلام :

لا خلاف في أن الإسلام يبيع الملكية بوجه عام فالشيوعية التي ترى ألا يملك الفرد شيئاً من عناصر الإنتاج تخالف روح التشريع الإسلامي ، كما أن الملكية المطلقة كما ينادى بها الرأسماليون اليوم لا يقرها الإسلام لتطرفها وتغاليها . ولقد وردت قيود ليست بالهينة على الملكية في التشريع الإسلامي بنيت على المبدأ الإسلامي العام « رفع الضرر » ورفاهية المجموع .

فالفرد حر في أن يملك ما يشاء من عقار أو منقول وله أن يتصرف في ملكيته حسبما يراه الأصلح له ، وشرط ذلك ألا يخالف قاعدة إسلامية وألا يضر أحداً من جراء تصرفه ، هذان الشرطان قد يبدو فيهما لبس كثير وغموض كما أن فيهما مرونة تسع مختلف التأويلات والتفسيرات ، فما هي القواعد الإسلامية التي يجب أن يراعيها المالك وما هي احتمالات الضرر وما حدوده ؟

أما القواعد العامة للملك في الشريعة فلا تختلف كثيراً عما نألفه الآن من قواعد عامة إذ يجب أن يكون مصدر التملك حلالاً ؛ فمن ملك أرضاً اشتراها بمال مسروق بطلت ملكيته وحيازته . ومن القواعد العامة أن تتم الجيازة والملكية في حدود القانون العام ؛ فمن اشترى عقاراً من شخص غير أهل للتصرف بطل التعاقد بينهما . أضف إلى هذا ألا يقع غش أو تدليس أو إكراه أو ما يبطل العقود عامة . هذه الناحية ظاهرة وقد فصلها الفقهاء في باب العقود أدق تفصيل . وهم وإن اختلفوا في هذا التفصيل فإنهم متفقون في الجوهر واللباب .

وهناك وجه آخر يدخل في هذا الباب وهو أنه إذا ارتأت الدولة أن تنفرد بملكية طيب من الطيبات ، منقولا كان أو عقاراً ، استهلاكاً أم إنتاجياً ، فلا يصح للفرد

حينئذ أن يملكه . ويعتبر هذا من القواعد العامة إذ على الفرد أن يخضع للدولة وما دامت هذه ارتأت أن تنفرد بملكية معينة فليس للفرد أن يخرج عليها . ولقد يُتساءل : هل في إمكان الدولة الإسلامية أن تسن من التشريع ما تستحوز به على أية ملكية كانت ؟ الجواب بالإيجاب ما دامت الدولة إسلامية بمعنى الكلمة إذ أنها لن تقرر هذا ما لم تكن المصلحة العامة موجبة له (عمر في عام المجاعة) .

أما فيما يختص بدفع الضرر الذي يقع على الغير فذلك هو العسير في التفسير . ذلك أنك قد تملك أرضاً بحال حلال وعن تعاقد صريح صحيح ثم تتكاسل عن استغلال هذه الأرض بنفسك مع حاجة جمهور الناس إليها ، هنا يأبى الإسلام الأغر أن يعتاز الناس وهناك مصدر لدفع العوز — وهو استغلال الأرض — والعوز ضرر ودفع الضرر محجوب بملكيتك ، وهذا لا يجيزه منطق سليم . هذا مثال فيه بعض التعقيد وسنعرض له فيما يلي ، وإنما سقناه لنبين أن « دفع الضرر » مبدأ يتسع لكثير من التفسيرات . ولا شك أن هناك أمثلة أخرى يبدو فيها الضرر صريحاً وهو مقترن بالملكية كامتلاك جدول يستقى منه الغير ، والماء صادر من عين فجرها الله ، فهذا أمر لا يجوز قطعاً نظراً للضرر الواضح الذي يقع على غير المالك .

علينا إذن أن نبحث عن الحكمة التي بها نحكم على وجود الضرر أو انعدامه ، ونعين حدوده وهذا أمر مرده إلى روح التشريع ، والأساس الإسلامي للمجتمع : أما روح التشريع فهو قائم على وحدة الجماعة وتضامنها بأقصى ما تحتل الكلمات من معان ؛ فالفرد مسئول عن الكل والكل مسئول عن الفرد ، لا مسئولية مدنية فحسب بل مسئولية كاملة معنوية ومادية ؛ مسئولية تشمل العبادات والمعاملات . فمن جهر بمعصية الخالق حُوق لأى فرد أن يطالب عقابه ، ومن أجاز شريداً أو طريداً أو محارباً فعلى المجتمع أن يحترم عهده وإجارته ، ومن افتقر فعلى الكل إعادته على فقره وهكذا — هذا أصل من الأصول يتبعه أمر آخر هو أن العمل أساس الإنتاج وهما معا برهان صدق الإيمان الذي لا يقوم المجتمع الإسلامي إلا به ، فالإسلام لا يبيح الهرج ولا التكاسل ولا يقر بإنتاجية لا تشمل عنصر العمل . وهذا يجزنا إلى البحث في ملكية « رأس المال » بمعناه العصري ورأى الإسلام في استغلاله .

إذا قلنا إن رأس المال هو مجموع مدخر من مجهودات سابقة في صورة مادية قصد استغلالها في استثمار لاحق فإن الإسلام يبيح هذا الاستثمار — ما دام المستثمر يسذل عملاً أو يتحمل خطراً .

والقاعدة الإسلامية في هذا « الغنم بالغرم » . ولا جدال في أن من يشتري بمدخراته سندات تدبر عليه فائدة ثابتة إنما يخالف روح التشريع ويكتسب على نفسه ربا محرما ، وظاهر أن الحكمة من هذا عدم التكاسل وتداول الأموال والحض على المساهمة في زيادة القوى الإنتاجية في الدولة فليس الشريك كالمقرض ، ولا العامل بنفسه كالعامل بجهود غيره . نفس هذه النظرية تنطبق على رجل ادخر مالا ثم اشترى أرضاً زراعية ولم تسمح له ظروفه باستغلالها بنفسه ، هل له أن يكرها أم لا ؟ الجواب الذي لا خلاف فيه بالنبي ، فكراء الأرض ككراء رأس المال سواء بسواء ، إذ سيأخذ صاحب الأرض أجراً على رأس ماله المستثمر في الأرض دون مشاركة بعمل أو مساهمة في خطر ، وهذا ما لا يقره الإسلام . ولقد حرم الإسلام كراء الأرض^(١) بنص الحديث المتفق عليه كما سنورده إن شاء الله تعالى . كما أن روح التشريع كما ذكرنا تعارض مثل هذا الاستثمار . وواقع الأمر أن التجربة تثبت بغير شك أن كراء الأرض يدعو إلى إيجاد طبقة من (الملاك) تختلف مصالحها مع مصالح (طبقة المزارعين) ، فأولئك يعيشون في رغد دون عمل وينعمون بترف لا يقره الإسلام دون ما خطر، بينما يشقى المزارعون في فلاحه الأرض واستنباتها ، عليهم الغرم كله والعمل كله وهذا إجحاف لا يقره منطق ولا شريعة .

الأصل في الإسلام إذن إباحة ملكية الأرض وغيرها من هبات الطبيعة على أن تكون الملكية بحقها ، وحققها استغلالها بيد الجهود المنتجة فيها وذلك بقصد فائدة المجتمع التي يجب أن تغلب دوماً على مصلحة الفرد حينما تعارضت المصلحتان . هذا الحكم يمكن أن نورده بصورة أخرى : هي أن الإسلام يحرم ملكية أي عنصر من عناصر الإنتاج مادام المالك لا يستغله بجهوده المباشرة أو غير المباشرة في نفع المجتمع وزيادة رفاهيته فكل ملكية لا يستثمرها مالكها بجهوده لهذا الغرض ساقطة وإن كانت مكتسبة بعقد صحيح وعلى أساس سليم .

هنا يجدر بنا أن نعرض لطريقة أخرى من طرق الاستثمار — ألا وهي المزارعة . وبصرف النظر عن اختلاف الفقهاء وتجريح بعض ما ورد من الأحاديث الشريفة فيها والاستدلال بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجريح تصرفه عليه السلام ؛ فإن منطق الشريعة في المزارعة واضح كل الوضوح إذ لو سلمنا جدلاً بما أسلفنا من مقدمات لكانت النتيجة أن المزارعة في بعض صورها مشاركة في الربح دون عمل مادي أو معنوي ، بل إنها قد تكون استمئاعاً بغم دون غرم . مثال ذلك مالك لأرض زارع

(١) هذه مسألة خلافية وقد اختار « الباحث » هذا الرأي . (التحرير)

آخر على ألا يساهم الأول في الإنتاج إلا بتقديم « رأس المال » الثابت وهو الأرض ، وعلى الثاني أن يقدم البذر (وهو رأس مال) والآلات والماشية والسماد (وكلها رأس مال) وأن يقوم فوق ذلك بالعمل فإذا ما أنبتت الأرض فللأول النصف من المحصول أو الثلث أو الربع . هذه حالة كثيرة الديوع والوقوع في الحياة العملية ولسنا نراها متمشية مع ما حله الشرع ولما أوجبه . إذ لو كان نصف المحصول (وهو نسبة المحاقلة فرضاً) أقل مما بذله الشريك العامل من رأس مال لكان هذا غرماً دون شك ، ولأخذ الشريك الأول نصف المحصول وهو آمن من كل خطر . رب قائل يعترض بأن الشريك الأول معرض للخطر أبداً إذ أن النصف مجهول السهم وقد يصل إلى الصفر عداً ، وهذا صحيح من الناحية النظرية ولكنه نادر من ناحية التطبيق . وحتى لو سلمنا به فإنه من غير المعقول أن تنقص قيمة رأس مال الأول (أى الأرض) باستثمارها فهو على كل حال ومهما كانت نتيجة المحصول ضامن لاسترداد رأس ماله بالكامل بينما شريكه قد خسر كل رأس ماله أو بعضه كما خسر عمله . ولما كانت المشاركة لا تقوم على أساس سليم ما لم يطبق مبدأ « الغنم بالغرم » فنحن نرى أن المزارعة في مثل هذه الصورة باطلة تماماً أقرب ما تكون إلى الأقراض برأ حيث يعطى المقرض رأس ماله لتاجر على أن يدفع له حصة معينة وعلى ألا ينقص رأس ماله مهما بلغت خسارة التاجر . إن اشتراط حصة من الناتج من الأرض مثل اشتراط حصة من الربح ولا يمكن أن نبرر صحة مثل هذا العقد لمجرد أن يكون نصيب الشريك نسبة مئوية دون عدد رقمي ثابت . والعيب في هذا الوضع هو ألا يقل رأس المال بل يزيد أبداً ما زادت حصة الشريك ، فإن انعدمت استرد رأس ماله . فإن خسر الشريك العامل جزءاً من رأس المال حصل الشريك المساهم على رأس ماله دون نقصان . أما إن كانت المزارعة قائمة على أن يقوم الشريكان بالإنتاج فتلك ولا شك مزارعة سليمة لا عيب فيها . فإن أمد صاحب الأرض شريكه بالبذر مثلاً صحت المزارعة أيضاً لأنه إذا لم تنبت الأرض شيئاً تساوى الغرمان (مع اعتبار نسبة المزارعة) إذ سيفقد الأول بذره وسيفقد الثاني زبله وعمله وستبقى الأرض سليمة لصاحبها . فإن أخذت المزارعة غير هاتين الصورتين فهي باطلة عندنا حتى ولو ساهم صاحب الأرض فوق أرضه بالسماد ، إذ السماد رأس مال غارق تستفيد منه الأرض على أى حال وهى باقية لصاحبها وهلاك الزرع لا يهلك الزبل . حقيقة قد يقال أن الزرع استفاد من الزبل كثيراً وأن هلاكه خسارة في رأس مال مستثمر (وهو الزبل) إلا أن الأحوط أن نقول إن تسميد الأرض يعود عليها بفائدة أكثر مما يعود على زرعة واحدة منها وأن هلاك الزرع

لن يفنى ما بذل في الأرض من تسميد . فلا يصح عندنا إذن أن تكون المزارعة به وحده اللهم إلا إذا كانت قيمة الزبل كبيرة بدرجة يعتد بها وكانت طبيعة الزرع أن يمتص السماد كله أو أكثره ، وهذا كثير الوقوع في عصرنا هذا . والعبرة في التحليل ليس لفظ البذر أو الزبل وإنما في وجوب مساهمة رب الأرض برأس مال معتبر غير الأرض ذاتها ، ليكون اشتراكه في المزارعة اشتراكاً صحيحاً يتحمل فيه مع العامل غنا بغيره .

والعبرة في توزيع الناتج من الأرض هو نسبة ما يساهم به رب الأرض ، والصحيح ألا يكون للأرض سهم يحصل عليه مالكيها ، لأن الأرض لله والانبات من نعمه ، وحصة صاحب الأرض يجب ألا تتجاوز نسبة ما ساهم به فعلاً في نفقات الزرع . فإن قيل إن في هذا غبناً عليه إذ قد يكون بذل في أرضه من قبل جهوداً أكسبتها ميزات على غيرها من أرض الغير واستحدث فيها من الإصلاحات ما يجعلها أكثر انباتاً وأسهل زراعة على المزارع العامل فيها . من أجل ذلك وجب أن يحصل على حصة أكبر من حصة مالك آخر لم يستصلح من أرضه بمقدار ما استصلح هذا منها . جواب ذلك أن ريع الأرض اقتصادياً هو ميزتها على أرض جذبة أي أرض غير مربحة ولا خاسرة ، وإن مستصلح الأرض ومالكها سينال من الريع أو من الغلة الناتجة من الأرض أكثر مما تغله أرض لا ريع لها أو أرض قليلة الغلة ، والفائض سيقسم بينه وبين العامل في الأرض بنسبة المساهمة بينهما . ولو لم يعمل العامل لما كان لاستصلاحه قيمة قط ، فاستثمار ما استغل من رأس مال غارق في الاستصلاح سيتم على يد المزارع فوجب أن يعطى ثمن استثماره . وبعبارة أخرى أن من يبذل رأس مال غارق لاستصلاح أرضه سيحصل على غلة أكبر (مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها) وسينال حصة أكبر من صافي الريع .

« للبحث بقية »

المترفون ...

« شرار أمتي الذين وُلدوا في النعيم وغدّوا به : يأكلون من الطعام ألواناً ، ويلبسون من الثياب ألواناً ، ويركبون من الدواب ألواناً ؛ يتشددون في الكلام . »

« حديث شريف »

الإسلام دين الوحدة

للاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

نعم ! الإسلام دين الوحدة ، لا التوحيد فقط ، فقد أخذت كلمة « التوحيد » معنى خاصا لا تعدوه ، هو القول بإله واحد خلق السموات والأرض وما بينهما ، وإليه وحده يرد الأمر كله ، وذلك في مقابل القول بإلهين اثنين أو آلهة متعددة . بينما الإسلام لا يدعو إلى توحيد الخالق فحسب ، بل قام على « الوحدة » في كل شيء ؛ في الناحية الإلهية ، والناحية السياسية ، والناحية الاجتماعية ، إلى غير ذلك كله من نواحي العالم والحياة .

١ — جاء الإسلام والعرب ، كما نعلم ، يعبدون آلهة شتى من صنع أيديهم ، فكان أول ما عني به رفض هذه الآلهة جميعا ، وتقرير أنه ليس إلا إله واحد مالك الأمر كله . فليس هناك آلهة كثر كما كان يرى المشركون بعامة ، ولا إلهان اثنان : واحد للخير وآخر للشر ، كما كانت عليه الثنوية بفارس ، ولا آلهة ثلاثة على ما كان يعتقد أهل الإنجيل بعد أن حرقوا ما نزل إليهم .

قرر القرآن هذه العقيدة في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : « قل هو الله أحد » ، « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » ، « لکننا هو الله ربی ولا أشرك بربی أحدا » « وإلهکم إله واحد » ، « قل إنما هو إله واحد وإنی بریء مما تشركون » . ومنها قوله مخاطبا من كفر من النصارى بالمسيحية الحق : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد ، وقوله في آية أخرى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد » .

ومن العجيب حقا ، الدال على فساد العقل وعدم التمييز بين الحق والباطل ؛ أن أولئك المشركين ، وقد جاءهم الإسلام بالتوحيد ، وأقام عليه الأدلة التي لا ريب فيها كانوا يقولون كما حكى القرآن عنهم : « أجبثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا » ! .

« أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب » ! يقولون هذا ، وهم يرون رأى العين أن ما زعموه آلهة لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى من الحق شيئاً ، وأن هذه الآلهة لن تستطيع أن تخلق ذباباً ولو اجتمعت إليه ، ولكنه ضلال العقل وفساد الحس وسلطان التقاليد !

٢ — ولم يكتف الإسلام بتقرير هذه « الوحدة » في الإله الذى يستحق العبادة ، بل رأى أنه وسائر ما سبقه من ديانات سماوية « وحدة » واحدة : هى رسالة من الله للبشرية عامة ، بعضها يكمل البعض الآخر طبقاً لسنة التدرج في التريية والتعاليم ، وكلها يهدف إلى غاية واحدة وإن اختلفت وسائل الوصول إليها باختلاف الناس والأزمان .

وفي هذا نرى القرآن يقول في سورة الشورى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، ثم يقول في السورة نفسها : « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم » ، وقبل هذا يقول في سورة البقرة : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله » ، كما يقول في نفس السورة : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

في هذه الآيات دليل ، أى دليل ! على أن الإسلام يعتبر رسالات الأنبياء جميعاً « وحدة » لا تحتمل التفرقة ، وأن من لم يؤمن بأحدها لا يكون مسلماً ، وأنه — نتيجة لذلك — يكون جميع الناس أمام هذه الشرائع والديانات وأمام الله سواء بلا تفرقة بين أتباع هذا أو ذاك من الرسل ، ما داموا يؤمنون برسالة خاتم الرسل والأنبياء .

إن الإسلام لم يقل ، كما قال أتباع موسى وعيسى عليهما السلام ، « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ، بل ردّ هذا القول الذى ينضج بالتفرقة بين الأديان وأصحابها ، فقال : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، كما قال قبل هذا : « إن الدين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وذلك الأصل الذى تضمنته هاتان الآيتان ،

يقرر بصراحة ما جاء به الإسلام من « الوحدة » في الدين ورسالات الله لأنبيائه ورسله ، وما يتبع ذلك من « الوحدة » في المسئولية والجزاء .

ومن هنا نرى الإمام الشاطبي يلاحظ في كتابه « الموافقات » ، أن السور المكية في القرآن قررت من الأصول والتشريعات الأمور الكلية العامة ، يعنى الأمور التي لا تخص فرداً دون فرد أو فريقاً من الناس دون فريق ، والتي — لأنها كلية عامة — تبقى دائماً أبداً ، إذ لا يخالف فيها دين دينا ، ولهذا يكون من صالح العالم كله أن يظله متبعاً لها في كل زمان ومكان .

٣ — ثم من الله على العرب — والعالم بعامة — بالإسلام ، وهم قبائل وعشائر مختلفة متفككة الروابط متقطعة الوشائج والأوصال ؛ بعضهم لبعض عدو ، وبعضهم على بعض حرب ، وكان من هذا ما عرفه التاريخ باسم « أيام الحرب » أى حروبها في الجاهلية .

وكان لبعض أقطار شبه الجزيرة العربية « إمارات » عليها أمراء يحكمونها ويلون أمرها ، ول بعضهم نوع من الاستقلال ، وإن كانت تتبع سياسيا دولة الفرس أو دولة الروم ، فماذا صنع الإسلام بهؤلاء الأقوام المتقاطعين المتعادين ؟

كان أن صنع منهم أمة واحدة حقاً ، لها رئيس واحد ، وتتبع سياسة واحدة ، وتستهدف غاية واحدة هي نشر الدين الحق للإنسانية جميعاً ليكون هادياً للخير وعز الدنيا وسعادة الآخرة . وكان من أوائل ما صنع الرسول في هذا السبيل ، أن عمل على إزالة ما كان بين الأوس والخزرج « يثرب » من عداوة كانت لا تزال مشبوبة النار ، بأن وحد بينهم وجعلهم أنصاراً له على أعدائه من المشركين ، على ما هو معروف من تاريخ الإسلام .

وكان من أثر هذه « الوحدة » السياسية ، التي جاء بها الإسلام وعمل لها المسلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما لحق بالرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة لاختيار خليفة ، رأى الأنصار أن لهم حقاً في أن يكون الخليفة منهم لسابق نصرتهم للإسلام ورسوله ، لكن أبا بكر والمهاجرين جميعاً مع عرفانهم بما أثر الأنصار ، ذهبوا إلى أن يكون الإمام من قریش كما أثر عن الرسول ، وهنا قال الحباب بن المنذر من الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فقال عمر الفاروق : هيهات ، لا يجتمع اثنان في قرآن ! وكان أن انتهى الأمر بتولية أبي بكر الخلافة ، ثم صارت سنة

متبعة ، فلم يكن في عز الإسلام إلا خليفة واحد للأمة كلها على اتساع الدولة الإسلامية وامتداد أطرافها ، وكل هذا محافظة على « الوحدة » في السياسة العامة للدولة .

وفي هذا السبيل ، يرى فقهاء الإسلام أنه لا يجوز تولية خليفتين في وقت واحد ، وفي الدولة الواحدة ، حتى إنه يجب قتال من يخرج على خليفة العصر ، طالبا الخلافة لنفسه لأنه أفضل من الخليفة القائم فعلا . أين هذا مما نحن عليه اليوم من تجزئة الدولة الإسلامية إلى دول ، حتى صار في كل بلد سرير ومنبر وعلم !

٤ — وإذا تركنا الناحية السياسية إلى الناحية الاجتماعية ، نرى « الوحدة » التي قررها الإسلام في هذه الناحية بلغت من الروعة حد الإعجاب ، وصارت لهذا مضرب المثل تتحدى التاريخ كله والأمم جميعاً .

ففي الهند مثلاً ، ترى الديانة البراهمية نفسها هي التي تقسم الأمة إلى طوائف أربعة ، وتجعل أعلى هذه الطبقات البراهمة أو الكهنة وأدناها السفلة أو الأنجاس . ويكفي لندرك ظلم هذا النظام الطبقي الصارخ وقسوته البالغة ؛ أن نعرف أنه جاء في قوانين أحد مشرعي هذه الديانة ، وهو « منو manou » ، أن البراهمي يجب احترامه بسبب نسبه وحده ، وأحكامه هي وحدها الحجة ، وأن له — حين الحاجة — أن يمتلك مال الواحد من السفلة ، لأن العبد وما ملك يده لسيده . وكان محرماً على هذه الطبقة المنكودة أن يتصل أحدهم بشيء من الدين أو العلم به ، وإلا حلّ به عذاب غليظ ؛ مثل صب الرصاص المصهور في أذنيه ، وشق لسانه ، وتقطيع جسمه (١) وإذا كان الهنود ، كما رأينا ، قد فرقوا أمتهم فأقاموا المجتمع على نظام طبقى بغض فإن اليهود — وهم أصحاب دين سماوى — قد حجروا من رحمة الله الواسعة حين زعموا أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه ، وحين فرقوا في تشريعاتهم بين اليهودى وغير اليهودى ؛ فحرموا الربا بشدة بين بنى إسرائيل ، وجعلوه تجارتهم الراجعة الحلال بالنسبة لمن لم يكن منهم ؛ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ! كما أنهم أباحوا استرقاق من سواهم بينما ليس لإسرائيلى أن يستعبد إسرائيلياً بحال ما ، بل عليه أن يحسن عشرته ويساعده على الحياة (٢) .

(١) يرجع في هذا إلى ما كتب عن الهند وحضارتها ، ومن هذه المراجع كتاب : « حضارة الهند » للدكتور جوستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعير ، نشر الحلبي سنة ١٩٤٨ ، ص ٢٩٥ وما بعدها . وكتاب قصة الحضارة تأليف « ول ديورانت » ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ص ٣٦٦

(٢) يرجع في هذه التفرقة إلى التوراة نفسها ، سفر التثنية ١٥ : ٧ — ٨ ، سفر اللاويين ٢٥ : ٣٥ — ٣٩ . على أن هذا معروف من تاريخهم وحاضرهم

تجاه هذه النزعات المفرقة للأمة الواحدة من جانب ، وللعالم كله من جانب آخر ، نرى الإسلام يقرر ، في صراحة لا لبس فيها ، وقوة لا هوادة معها ، « وحدة » الناس جميعا ، لا فرق بين جنس وجنس وأمة وأمة .

لقد عا الإسلام من أول الأمر النعرة الجاهلية ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ، إذ أبان أن أصل الناس جميعا واحد ، وهذا إذ يقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، وإذ يقول القرآن الكريم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وإذاً ، فلا تفاضل بالأنساب ، أو الأجناس ، أو البنى ، أو الجاه ، أو نحو هذا أو ذاك مما تعارفته الأم أساساً للتفاضل ومقياساً للقيم . ومن أجل ذلك ، ليس هناك طبقات في الأمة ، وليس هناك تشريعات للعربي وأخرى للعرب ، كما كان الأمر عند اليونان والرومان ، بل العالم كله في نظر الإسلام من هذه الناحية أيضاً « وحدة » واحدة ، تحكمه شرائع وتعاليم واحدة ، لا فرق بين الخليفة والرعية أو الحاكم والمحكوم .

وقد كان للعبادات المفروضة أثرها القوي في تدعيم هذه « الوحدة » ، وحفظها من التفكك والانحلال ، فصلوات في أوقات واحدة للجميع ، وصوم في زمن واحد للجميع ، وحج في مكان واحد وأشهر معلومات للجميع .

ويتصل بهذه الناحية الاجتماعية ، ما فرضه الإسلام والأخلاق التي ترجع إليه من الانسجام بين الجسم والروح من ناحية ، وبين نظرة الإسلام للدنيا والآخرة من ناحية أخرى . إن الإسلام أعطى لكل من الجسم والروح ما له من حق ، فلم يقل مع أنصار مذهب اللذة في الأخلاق بأن اللذة هي الخير الأعلى ، ولم يقل مع الرواقيين بأن هذا الخير هو في كبح الشهوات إن لم نقل استئصالها ؛ ولم يدع إلى ترك الدنيا جملة رجاء ما في العالم الآخر من ثواب ، بل قال كتابه الحكيم : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » بهذه السياسة الأخلاقية لا يكون المرء مكونا من عنصرين كلاهما للآخر عدو ؛ وهما الجسم والروح ، بل يكون مجموع هذين العنصرين « وحدة » يسعد الإنسان بنشاطها مادامت قائمة ؛ إذ يصل بهذا النشاط إلى الخير الحق الذي يريد .

وبعد ! من لنا هذه الأيام بهذه « الوحدة » التي جاء بها الإسلام ؟ من لنا بهذه « الوحدة » لنشعر بأننا مسلمون حقا ، وبأن لنا مكانا الملحوظ في العالم ؟

علينا أولاً وقبل كل شيء ، في هذه السبيل أن نوحّد التعليم في مصر والعالم العربي الإسلامي كله بمعنى توحيد أسسه وأغراضه وغاياته العامة ، وأن يقوم هذا التعليم على أسس إسلامية قومية ، وأن يتولى أمره أناس وهبوا أنفسهم لإيقاظ العالم الإسلامي ونهضة الإسلام . وإلا فكيف لنا أن نرجو شيئاً من الخير من ثقافة تجعل البلد الإسلامي الواحد ، بله الأمة الإسلامية عامة ، عقليات مختلفة لا تدع للتفاهم سبيلاً بين بني الوطن الواحد ! وكيف نرجو الخير من ثقافة يقوم عليها في كثير من الأحيان من لا يؤمن بالإسلام : روحاً وعقليّة وحضارة !

إنني غير متشائم ، بل إنني لأرى في الأفق القريب أمارات نهضة حقة يقوم بها جيل مؤمن حق الإيمان ، وعلى رأسه من الزعماء نفر مخلصون لقوميتهم العربية ووطنهم الإسلامي الأكبر وهذا الجيل — ومنه سيكون الزعماء بفضل الله — يرى طلائعه في كل مكان ، ويزي الأمة تتطلع إليه وتضع أملها فيه وسيحقق هذا الأمل إن شاء الله تعالى لخير الإسلام والعرب والعالم كله ، ومن الله العون والتوفيق .



رحمة النبوة . . .

انتقل سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، فكان إذا وقع نظره على الفلاح وهو يقاسي البرد في خدمة الزرع والنخيل شتاء ، أو يعرق في طلب رزقه صيفاً ، يفيض قلبه برحمة لا يفهم معناها كثيرون من هؤلاء المتشدين باسم الإنسانية . وقد أوتى في يوم من الأيام بتمر بعل وبتمر سقي ، فجعل يأكل من البعل ، فقالوا له :

يا رسول الله : إن هذا أصنى وأطيب .

فأجابهم : إنه لم تجع فيه كبد ، ولم يعر فيه جسد .

السياسة البربرية في مرش

عناصرها - مظاهر تطبيقها

للأستاذ علال الفاسي

حينما احتلت فرنسا بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ وقف رجال الاستعمار الفرنسي يتساءلون عن السياسة التي يجب اتباعها للقضاء على وجود أمة عربية مسلمة في شمال أفريقيا ، وكيف يمكن أن يطبقوا في هذا الجزء من العالم الإسلامي ما سبق لهم أن طبقوه في كندا . لقد كان الاستعمار اللاتيني في أمريكا الجنوبية ، والاستعمار الإنجليزي في أمريكا الشمالية هو المثل الأعلى الذي يجذبهم إليه ، إن إبادة العنصر العربي والإسلامي ومحوه من الوجود ، وإحلال العنصر اللاتيني المسيحي في أفريقيا الشمالية محله عن طريق الهجرة المنظمة خير ما يضمن لفرنسا دوام بقائها ، واستمرار نفوذها حتى يصح لها يوما من الأيام أن تقف بجانب الدول الاستعمارية الأخرى مضاهية مفاخرة بكون استعمارها استطاع أن يقضى على عنصر وقيم عنصر آخر مكانه ، وحتى يصح لها كذلك أن تقدم لرجال الرهينة المسيحية معترزة بكونها استطاعت أن تحقق لهم ما عجز الفرنسيون عن تحقيقه من وصية (سان فرانسوا داسيس) للاخوان المحجورين .

ظلت هذه الغاية الدستور الذي تدير عليه سياسة فرنسا الاستعمارية أمداً غير قصير وإليه ترجع كل الاضطهادات التي استعملتها فرنسا في أوائل احتلالها للجزائر ضد هذا الشعب العربي الباسل ، ولكن سرعان ما تنبه ساستها إلى أنهم إزاء شعب مغربي مخالف في قوته ومناعته للشعوب التي واجهتها السياسة الاستعمارية الإنجليزية في أمريكا من هنود حمر وأفارقة سود . أنها إزاء سلالة عربية بربرية أثبتت حصانتها وقوتها على مجابهة كل أحداث التاريخ وفجائع الأجيال ، إزاء أمة استطاعت أن تصمد للزمن وتقاوم الفاتحين دون أن تتأثر بهم أو تنحني أمامهم وبذلك فليس من السهل على فرنسا أن تحقق برنامجها المنشود لإبادة شعب الجزائر ، خصوصا وأن مصلحتها التي كانت ترمى إلى مد سلطانها على تونس ومراكش تمنعها من أن تدير بغير الوسائل

التدريجية التي تسدل على أعمالها رداء النفاق وغشاء الحيلة ، ونظرت فإذا أفريقيا قريبة من الغرب حيث تقبلور عدة حركات ثورية من شأنها أن تثير الأحقاد وتساعد على المقاومة ، وإذا الأساليب الاستعمارية الأخرى تتطور ، والتنافس الاستعماري الألماني والإيطالي يزداد . وكل ذلك لا يشجع على القيام بالضربة الحاسمة التي تبديد أمة المغرب وتفتح الباب على مصراعيه لتحقيق الأحلام الفرنسية الكبرى .

وتمر الأيام وتشعر فرنسا بأن العنصر الأهلى في الجزائر لا يزداد إلا نمواً ، وعدد السكان لا يزداد إلا تضاعفاً ، على الرغم من مظاهر البؤس والجهل والمرض التي صحبت السياسة الاستعمارية الفرنسية في كل أطوارها ، حينذاك ترجح في نظر الساسة الفرنسيين الرأى القائل بضرورة تجنيس العنصر المغربي ، وابتلاع الأسرة الفرنسية لهؤلاء السكان الأصليين ذوى المناعة الحصينة ، ولكن هؤلاء لا يملكون الحصانة البدنية فقط ، أنهم يملكون حصانة روحية وعقلية أقوى من المادة نفسها ؛ تلك هي إيمانهم بدين محمد وتشبعهم بثقافة الإسلام ولغته ، وما دام هذان قوين في نفوسهم قلن يسمح لهم بنبد جنسية المسلم والدخول في جنسية أجنبية مستعمرة كافرة ، وهكذا تكونت جرثومة السياسة البربرية قصد تمهيد الطريق لفرنسة المغاربة عن طريق تنصيرهم .

بدأ تطبيق السياسة البربرية في الجزائر فتجلت معها كل عناصر هذه السياسة التي تنفذ اليوم في مراکش ، فقد أصدرت الولاية العامة سنة ١٨٥٩ في الجزائر قانوناً بفصل (القبائل) أى العشائر البربرية عن اختصاص المحاكم الشرعية الإسلامية ، مدعية أنها لم تفعل ذلك إلا تحقيقاً لرغبات البربر أنفسهم ، ولكن رغبة البربر ظهرت جدياً سنة ١٧٨١ حين اندلعت ثورة (القبائل) بقيادة سيدى المقرانى ضد السلطة الفرنسية التي حاربت الشريعة الإسلامية وخانت العهود . وفى ظل انتصار الفرنسيين على هذه الثورة حلت الحكومة العامة كل الجماعات العرفية التي أمستها لتحل محل المحاكم الشرعية ، ثم ألحقت (القبائل) بالمحاكم الفرنسية رأساً فى قرار أصدرته فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٧٤ ثم توسعت فى هذه السياسة فأصدرت فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦ قراراً يجعل كل ما كان من اختصاص المحاكم الإسلامية اختصاصاً للمحاكم الصلح الفرنسية . وهكذا أصبح العرب والبربر كلهم يتحاكمون أمام المحاكم الفرنسية إلا فى بعض جزئيات الأحوال الشخصية . فقد أقيمت بالنسبة للعرب تحت نظر قضاة شرعيين لا حول لهم ولا نفوذ .

وحينما وصلت الجيوش الفرنسية إلى مراکش كان أول عمل قام به الجنرال ليوطى

هو تطبيق نفس هذه السياسة في ما أخضعه من أجزاء الوطن ، فقد كان همه الأول أن يحافظ على ما سماه (بالإطار المحلى) رغبة في تجزئة البلاد ، وجلبها شيئا فشيئا خارج الإسلام حتى تجد نفسها في ضمن العائلة الفرنسية ، وقد عبر عن هذا في رسالة كتبها للكلونيل هنرى سيمون جاء فيها ما يأتى : « يجب أن نأخذ بعزم وحكمة المراكشى ولا سيما البربرى على ما هو عليه وفى المستوى الذى يوجد فيه ثم نجذبه تدريجيا دون أن نخرجه من إطاره » ومعنى هذا أن المغربى يجب أن يحتل روحيا وتؤخذ نفسه تدريجيا دون أن يتطور فى مظهره الخارجى بل يبقى فى المستوى الذى هو عليه ، يجب أن يبقى فى تأخره الظاهرى ولكن يفقد معنوياته الباطنة ، ولتحقيق رغبة ليوطى هذه أخذ ضباط الشئون الأهلية الفرنسيون منذ الساعة الأولى كما قال بول مارتى (١) وكذلك المراقبون المدنيون يبدلون كل المجهودات لتفهم العقلية البربرية ، مرضين بذلك رغبة الرؤساء العسكريين وخصوصا الجنرال بيجو . وكان أول مظهر رسمى أعلنته الحماية الفرنسية لهذه السياسة فى مراكش هو مرسوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ الذى يعترف لقبائل العرف البربرى بأن تحكم وتنظم طبق قوانينها وأعرافها الخاصة تحت مراقبة السلطات (٢) . وقد علق الميسوريو على هذا المرسوم بقوله إن مرسوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ ذو أهمية عظيمة لأنه وضع مبدأ عدم إسلام القبائل البربرية (٣) .

وفى سنة ١٩١٥ أصدر المارشال ليوطى قرارا بتشكيل لجنة الأبحاث البربرية تحت رئاسة الكاتب العام للحماية وعضوية المديرين الفنيين الفرنسيين والمختصين فى السياسة الأهلية ، وغاية هذه اللجنة أن تقوم بالأبحاث التى تسهل على فرنسا تنظيم القبائل البربرية وإدارتها بأسلوب يتفق والمصلحة الفرنسية ، ومنذ ذلك الحين وضع العلماء الفرنسيون أنفسهم تحت تصرف الإقامة العامة مسخرين أبحاثهم غير المحلصة لمصالح السياسة التجنيسية التنصيرية الفرنسية .

وطبعى أن تتناول هذه الأبحاث العناصر الرئيسية الضرورية لتكوين عنصر بربرى مستقل عن العنصر العربى فى داخل مراكش ، ففسير الأبحاث متوازية مع مظاهر السياسة البربرية التى تقوم على ثلاث دعائم . الأولى : ما يرجع للإسلام كدين للبربر .

(١) بول مارتى (مغرب القد) باريس ١٩٢٥ ص ٢١٨ .

(٢) الجريدة الرسمية للمملكة الشريفة ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٤ .

(٣) كتاب الجماعات القضائية البربرية ص ٩٢ .

الثانية : ما يرجع للشريعة الإسلامية كقانون في محاكم البربر .

الثالثة : ما يرجع للغة العربية وثقافتها في مناهج تعليم البربر .

وقد بذل الفرنسيون كل مجهوداتهم لإثبات أن الإسلام لم يمس الروح البربرية في صميمها لأنه لم يجردها من كثير من التقاليد والعادات التي تتنافى مع جوهر الإسلام ، ولأن البربر يقومون بتقديم الهدايا والنذر للصالحين ملتجئين منهم البركة والعون ، ولأنهم يحترمون شيوخ الطريق ويقدمونهم ، وكل ذلك في واقع الأمر أثر من آثار مسيحيتهم العتيقة لأنه لا يتفق مع إسلام الكتاب والسنة . وقد تجاهل هؤلاء الباحثون أن احترام الصالحين أو زيارة قبورهم لا يمكن أن يقوم حجة على عدم إسلام البربر ، وأخرى على قربهم من المسيحية ؛ لأن هذه التقاليد تتدرج على كل حال ضمن إحدى المذاهب المعترف بها في الإسلام ، ولأنها ليست خاصة بالبربر بل هي عامة في كل العناصر والأجناس المسلمة وهي نتيجة لتطور اجتماعي جعل التصوف والطريقة مظهرًا من مظاهر الإسلام في بعض عصوره .

يقول الأب آنج كولير أحد الرهبان الذين استعملتهم الكنيسة لخدمة السياسة التبشيرية بالمغرب في كتابه (بحث عن روح البربري المغربي) الذي صدره رسالة تفويض من الجنرال جوان وأخرى من قداسة البابا : « إن الديانة الإسلامية تعمل عملها منذ اثني عشر قرنا في المغرب ومع ذلك لم تستطع الاستيلاء على روح الجماعة البربرية التي احتفظت على الرغم من كل شيء على اتجاهها الديني الجاهلي ، وإن القرآن الذي يقاوم بدعوته كل الأعمال الوثنية والشركية ظهر عاجزا أمام البربر » (١) .

وإذن فالبربري محتاج إلى دين جديد . وخلق غير خلق الإسلام ، أنه يجب أن يتطور ولكن ليصل إلى المسيحية ثم إلى العائلة الفرنسية ، ويعبر عن ذلك الأب آنج كولير حين يقول في نفس الكتاب « لابد من قوة دينية أخرى ، لابد من شرارة إلهية وشعلة غير طبيعية لمحو الديانة الطبيعية البربرية . إن اليهودية والإسلام رفضا قبول روحانية المسيح ولذلك فلن يستطيعا أن يمنحا البربري هذه الشعلة السامية ؛ إن الإسلام ديانة وضعها الإنسان ، أما المسيحية فهي من صنع الله ، وعلى ذلك فالمسيحية وحدها قادرة على أن ترفع الفرد والجماعة والأسرة البربرية للمساهمة في الحياة الربانية التي جاء بها يسوع نفسه مرسلًا من عند الأب لتشر روح الحقيقة والعدالة والصداقة والسعادة لبني الإنسان » .

وليس ما كتبه الأب كولير إلا صدى لما رده كثير من المؤلفين الفرنسيين وقد أثرنا الاستدلال بكلامه هنا لأنه آخر ما كتب تحت رعاية الجزال جوان مقيم فرنسا العام في مراکش إلى ما قبل بضعة شهور ، وذلك دليل على أن فرنسا ما تزال ممعنة في سياستها البربرية المعادية للإسلام والعاملة على محوه في مراکش المسلمة ، ولنستمع إلى المسيو لوسيان سان المقيم العام الأسبق في تونس ثم في مراکش إذ يقول « إن بلادا كبيرة قد فتحت بعد ليل الإسلام الطويل لتقبل حياة جديدة وهذا الفتح الجديد يحمل في أناسه طغراء جيش أفريقيا » (١) .

إن جيش أفريقيا ليس إلا ممهدا للعمل التبشيري وحامياً له وإلا فالغاية هي التي وضعها المارشال ليوطي وشرحها مجلة (المغرب الكاثوليكي) « إن المارشال ليوطي يعرف المغرب جيداً ويعرف وسائل التغلغل اللائقة بالمناطق البربرية فهو حيناً وضع لهذه القبائل نظاماً خاصاً قد وحد بين العرب والبربر في التعلق بحكم واحد هو فرنسا ، وحيناً نفذ رغبة الأسقفية في الرباط فجعلها تحت إدارة أسقف فرانسيسكي يعاونه مجموعة من الإخوان وسمح لها بإنشاء مدارس خاصة عبّر عن يقينه في النفوذ الهائل الذي يستطيع الحصول عليه هؤلاء المرابطون المسيحيون في أوساط المسلمين لا سيما في اليوم الذي ينجحون فيه بجعل المغاربة يقبلون ما هو روح الحضارة الفرنسية أي النصرانية (٢) .

وحيث اتفقت الإقامة العامة ورجال الكنيسة والجيش على اتجاه واحد هو أن يتطور البربر نحو المسيحية فما هي الوسائل التي يجب أن تستعمل لإنجاح التبشير في وسط البربر؟ يجيبنا على ذلك مسيو دوجيرك دو لا سال إذ يقول « سنترك المسيحية تؤثر في النفوس البربرية كما أثرت من قبل في نفوسنا من غير أن تساعد عملها بوسائل شديدة أو رسمية ولكن بفسح المجال لها ، وعدم تشجيع ما يعاكسها ، وهذا ما يسهل بغير شك تفكيك عرى الكتلة العربية وبالتالي القضاء على الإسلام في أفريقتنا الشمالية لفائدة حضارتنا وجنسنا (٣) .

ويتضح من هذا كله بجلاء الأسلوب الذي سارت عليه السياسة الفرنسية في مراکش لمقاومة الإسلام ، ونشر المسيحية كوسيلة للسيطرة ؛ فقد سار الرهبان يؤسسون في شواهي

(١) مجلة (مغرب) عدد مايو يونية سنة ١٩٣٣ . (٢) (ماروك كاثوليك) عدد نوفمبر سنة ١٩٢٣ . (٣) مجلة تاريخ البعثات السنة الرابعة عدد ٣ الصادر في سبتمبر ١٩٢٧ ص ٣٢٩

الجبال المغربية العديد من الكنائس والتكايا والمدارس والمستشفيات التي تجود عليها الحماية من ميزانية الدولة بكل وسائل المساعدة المادية والأدبية في الوقت الذي تحارب فيه المساجد والزوايا ، وتقاوم العلماء والفقهاء وتمنعهم حتى من التجول في المناطق التي تسميها (بمناطق البربر) لتفصح المجال للأولين وتمنع الآخرين من مقاومة تمسيح المسلمين . وقد بلغ عدد مراكز التبشير الكاثوليكي سنة ١٩٣٣ ما يربو على ١٣٨ مركزا يعمل بها نحو ٣٠٠ عضو تحت قيادة الأسقفية الكاثوليكية بالرباط . وفي نفس الوقت أقفلت كثيرا من المساجد والكتاتيب القرآنية في مختلف جهات البلاد . كما ساعد الاستعمار الفلاحى الرسمى على استيلاء المستعمرين الفرنسيين على مئات الآلاف من الفدادين بما كانت تشتمل عليه من مساجد وأضرحة وكتاتيب انقلبت كلها إلى مرابض حيوانات ومراعى خنازير

” يتبع ”

السياسة والدين

إذا فصلت السياسة عن الدين فقدت معناها .

كل طفل في مدرستنا يدرى الأنظمة السياسية في الهند ويعرف كيف أن بلاده تنقذ بإحساسات جديدة ، بآمال جديدة ولكننا في حاجة أيضا إلى الضوء الثابت المستقر ، ضوء الإيمان الدينى . وليس الإيمان الذى يتحدث إلى العقل ، بل الإيمان المسطور في صفحة القلب . يجب أولا أن يرفع الستار عن ضميرنا الدينى ، فإذا وصل الشبان إلى سن الرجولة ، وصلوا إليه مزودين بأطيب زاد ، فيعرفون كيف يجاهدون في الحياة أما ما يحدث اليوم فهو أن أغلب الحياة السياسية وقف على الطلبة ، ولكنهم حالما يفرغون من الدراسة يفرقون في نسيان مطبق ويفتشون عن وظائف تعسة ، ناسين كل شيء عن الله

غانمى

(الذى كان يقول إنه لا يؤمن بدين !)

الروح في الإسلام

للأستاذ أبي الأعلى المودودي

أمير الجماعة الإسلامية في باكستان

ترجمه عن الانجليزية الأستاذ محمد فتحي عثمان

ما هو حظ الروح في الإسلام ؟ وما موضعها في نظام الحياة كله ؟ من الضروري كي نفهم هذا أن تقدر كل التقدير الاختلاف القائم بين التصور الإسلامي للناحية الروحية ، وبين نظيره في الأنظمة الدينية والفلسفية الأخرى . فبدون ذلك كثيرا ما يحدث عند التكلم عن النظام الروحي في الإسلام ، أن تقفز إلى الرأس مجموعة من التصورات المرتبطة بكلمة « روحى » لتدور فيه بدون قصد ، ويصبح من الصعب على المرء بعدئذ أن يدرك في هذا التخليط أى نظام روحى يمثل الإسلام في الحقيقة ، وهو الذى يتدخل — إلى جوار دائرة الروح المعروفة — في دائرة المادة أيضا ، بل إنه ليعمل على السيطرة عليها .

إن الفكرة السائدة بوجه عام في عالم الفلسفة والدين أن الجسم والروح في خصومة متبادلة ، وأن لكل منهما مجالا في النشاط منفصلا ، وأن ما يتصل بأحدهما مباين ، بل ومناقض لما يتصل بالآخر ، ومن ثم فمن غير الممكن أن يتقدما معا في وقت واحد . فعالم الجسد والمادة سجن للروح ، وصلات الحياة الدنيا ومتاعها قيود وأغلال لها ، وليست شئون الدنيا وأعباؤها إلا مستنقعا وخما تقتنص فيه الروح بين الشباك فيتوقف ترقيا . ولقد كانت النتيجة المحتومة لهذا التصور هى الفصل بين الروحانيات والدينيويات في مجريين متباينين . فافتنع الدين رضا بالحياة الدنيا منذ البداية بأن الروحانية لن تستطيع أن تسيرهم ، وهذا طرحهم في هاوية المادية . وأظلم الاجتماع والثقافة والسياسة والاقتصاد وكل مجال النشاط الدينى في الحياة من نور الروح ، وملئت الأرض جوراً . ومن ناحية أخرى ابتكر أولئك الذين ينشدون الروحانية من الطرائق والوسائل لترقية الروح ما كان بعيدا عن هذا العالم تماما . ولم يعد في الإمكان — تبعا لنظرتهم هذه — أن يجد المرء طريقا ما لرقى الروح يلائم الحياة المعتادة في هذه الدنيا . فقد كان إضعاف الجسد وتقشفه من الضروري عندهم لرقى الروح وسلامتها . وابتكروا من ضروب الرياضات الروحية والنسك ما يقتل الرغبة في الإنسان ، ويصير الجسد فاقدًا

للحس ، بل فاقدًا للنفع أيضا . واعتبروا الغابات والجبال والأطراف المنعزلة أنسب مكان لترقى الروح ، حتى لا ينفذ التمدن بدفعه وصخبه إلى رياضة الفكر !! فلم يستطيعوا أن يتصوروا طريقة ممكنة للرقى الروحي غير أن ينفذوا أيديهم من الدنيا وشئونها ، وأن يفصلوا تلك العلاقات التي تربطهم بعالم المادة .

ولقد أدت هذه المعركة بين الجسد والروح في تطور كل منهما إلى تباين المعاني والمقاصد بالنسبة لتجرى السكالك الإنساني . فكان هذا عند قوم في تمام الحياة الدنيوية ، فينبغي للإنسان أن يحاط بالمتع والنعم المادية ، وأن يستحيل في نفسه إلى طبيعة الحيوان ، لا يزيد عن أن يحكي طائراً جميلاً ، أو تمساحاً بديعاً ، أو حصاناً فارهاً ، أو ذئباً غالباً !! ومن وجهة النظر الأخرى كان السكالك الإنساني في إعلاء الروح ، ويعني هذا أن يحوز الإنسان قوى روحية بعينها ، غاية قصده منها أن يكون مثل جهاز لاسلكي أو تلسكوب قوى ، أو ميكروسكوب حساس !! أو أن يصبح في بصره وكلامه ما يقوم مقام السحرة .

وتختلف وجهة النظر الإسلامية في هذا الصدد عن كل الأنظمة الدينية والفلسفية السائدة في العالم ؛ فالله قد أقام الروح الإنسانية خليفة له وقلدها سلطة محددة وألقى عليها مسئوليات والتزامات معينة ، ولقد وهبها من أجل القيام بهذا كله إطاراً طبيعياً في أحسن تقويم . وإنما كانت منحة الجسد من أجل مقصد وحيد ، هو أن تستعمله الروح في ممارسة سلطتها وأداء واجباتها ومسئولياتها . ومن ثم لا يكون الجسد محبساً للروح ، بل هو « معملها » أو « مصنعها » وإذا كان هناك أى إمكان لنمو الروح وريقها فإنما يكون فقط عن طريق استعمال القوى والأدوات التي يعدها بها هذا « المصنع » ، وبهذا يكون تمكينها من عرض مقدراتها . فهذه الدنيا ليست — نتيجة لهذا — دار عقوبة يمسك فيها بتلابيب الروح بأية طريقة ، وإنما هي المعمل أو المصنع الذي أرسلها الله فيه لتؤدي وظيفتها وتعمل . ووضع تحت تصرفها من الأشياء ما لا حصر له كما خلق الكثير من الكائنات البشرية الأخرى في هذا العالم معها لتحقيق واجبات هذه الخلافة نفسها . وهيات مطالب الطبيعة لصالح الإنسان مدنية وثقافة واجتماعا وعلوما في الاقتصاد والسياسة وباقي ما تنظمه دائرة الحياة . فلا ينبغي أن يأخذ التقدم الروحي الميسور في هذه الحياة الدنيا صورة انصراف المرء بوجهه عن « المعمل » أو « المصنع » والتماس العزلة أو الراحة في ركن من الأركان ، بل لتكن الصورة الوحيدة الواجبة هي المعيشة والعمل في هذا « المعمل » وتقديم برهان المقدرة ، فهو قاعة اختبار للإنسان ، وكل مظهر ومجال للحياة هو — كيفما كان — ورقة أسئلة في هذا الاختبار . فالمنزل والمدينة والحى والشارع ،

والسوق والكتب والصنع والمدرسة والمحكمة ومركز البوليس ومعسكر الجيش ومجلس الشورى ومؤتمر السلم وميدان القتال ، كل أولئك أوراق أسئلة في مختلف الموضوعات ، يدعى إليها المرء ليجيب . فإن ترك ورقة منها أو لم يجب عن معظمها فما ضمن لنفسه إلا درجة الصفر . وإنما يكون احتمال النجاح والرقى في إنفاق المرء لكل وقته وتوجيه كل اهتمامه لهذا الامتحان أو لمحاولة إجابة ورقة الأسئلة المعطاة له جزئيا على الأقل .

وهذا الأسلوب يرفض الإسلام ويحرم النظرة الزاهدة في الحياة ، ويرى أن معارج السمو للإنسان الروحي ليست في خارج هذا العالم بل في داخله . فلمسكان الصحيح للنهوض والنجاح والتوفيق والرقى الروحي إنما يقوم تبعاً لذلك في خضم نشاط الحياة تماماً لا على ضفافها . ونستطيع أن نستنتج الآن المعيار الذي وضعه الإسلام أمامنا لنحكم على رقى الروح أو انحلالها . وعلى تفهم حقيقة « الخلافة » الآتية الذكر يقوم الجواب . فلما كان الإنسان خليفة لله فإنه يُسأل أمامه عن كل نشاطه في الحياة . وواجبه أن يستخدم كل سلطته التي تقلدها ، وكل الوسائل التي وضعت تحت تصرفه طبقاً للمشيئة الإلهية . وينبغي أن يستفيد إلى أقصى حد ممكن من كل العوامل والإمكانات التي وهبت له في التماس رضا الله ، كما ينبغي أن يتخذ لنفسه في كل صور العلاقات بينه وبين الناس مقاماً يرضى الله . وبالاختصار يجب أن توجه كل الجهود والقوى لتنظيم شئون هذا العالم وفق حكم الله . وكما قام الإنسان بهذا الواجب بروح استشعار المسؤولية والحرص على الواجب ، وعلى سبيل التعب والطاعة ، وبقصد التماس مرضاة ربه كلما كان قريباً من الله . والرقى الروحي في نظر الإسلام مرادف للقربى من الله . وعلى النقيض من ذلك ينأى الإنسان بجانبه عن الله إذا كان خاملاً متحايلاً غير مقدر للمسؤولية مذنباً عاصياً . والبعد عن الله في لغة الإسلام يعنى الانهيار الروحي للإنسان .

إن هذا الإيضاح يبين أن دائرة نشاط رجل الدين ورجل الدنيا ^(١) هي شيء واحد من وجهة النظر الإسلامية . فكلاهما سيعمل في « العمل » نفسه ، بل إن رجل الدين حين يعمل فسوف يكون أعظم شغفا واستمتاعاً من رجل الدنيا . وسوف يضطلع رجل الدين بكل مهام الحياة ابتداءً من جدران البيت الأربعة حتى ساحة السوق وبكل

(١) استعمل المودودي هذا التعبير (رجل الدين) للدلالة على كل متدين ، لا لتخصيص طائفة معينة من المتدينين كما يفهم من الاصطلاح الشائع ، إذ كل متدين رجل دين . واستعمل تعبير (رجل الدنيا) للكافر الذي لم يرد إلا الحياة الدنيا وعبد ماداتها من دون الله (المترجم)

المسئوليات المرتبطة بها ، مثله في ذلك مثل رجل الدنيا على حد سواء ، وفي حقيقة الأمر بدرجة أكبر . ومن الطبيعي أن ما سيفرق خُطًا أحدهما عن الآخر هو طبيعة الصلة بالله . فكل ما يقوم به رجل الدين من عمل فهو يؤديه مستشعرا مسئوليته أمام ربه ، مستهدفا رضا عنه ، مستهديا بشريعته التي رسمها له . وعلى العكس من ذلك كل ما يعمله رجل الدنيا فإن أدائه سوف يكون على نحو يدل على الاستهتار ، وبشعور من عدم مراقبة الله ، وبأساليب هي من خلق الإنسان نفسه . وهذا الفرق البارز يجعل من حياة رجل الدين المادية بأسرها حياة روحية تماما ، في حين ينجو في حياة رجل الدنيا نور الروح .

ولنبسط الآن في إيجاز كيف يجد الإسلام طريقه لرقى الإنسان الروحي خلال دوامة الحياة في هذا العالم . إن المرحلة الأولى في هذا الطريق هي العقيدة أو « الإيمان » وهو أن يفيض على عقل المرء وقلبه أن الله هو الرب الملك المعبود ، فيكون إبتغاء مرضاته هو غاية كل مساعيه ، وتكون أحكامه وحدها هي دستور حياته . وبقدر قوة هذه الفكرة وعمقها ، بقدر ما تكون سلامة العقلية الإسلامية حين تتشكل ، وبقدر ما يكون في وسع المرء أن يأخذ خطواته في طريق الرقي الروحي بصر وثبات .

أما مرحلة الطريق الثانية فهي الطاعة . فعلى المرء أن يخلع عن نفسه ذاتيتها تماما ، وأن يقبل طاعة الله عملا بعد أن أعلن إيمانه به اعتقادا . وهذه الطاعة هي ما يسمى « الإسلام » في لغة القرآن .

والمرحلة الثالثة هي التقوى ، ويمكن تفسيرها بالأسلوب المألوف ، بالقيام بالواجب واستشعار المسئولية . وإنما تكون التقوى في رجل يسوس نفسه في كل خطوة من حياته وهو موقن تماما بأنه محاسب أمام الله عن أفكاره وأقواله وأفعاله ، وتكون في الكف عن كل ما نهى الله عنه ، وفي الاستعداد للاضطلاع بكل ما أمر به ، وفي العيش طوال العمر على علم بئين بالحد بين الحلال والحرام ، والصحيح والخطأ ، والخير والشر .

وآخر المراحل وأسمائها هي الإحسان ، ويعنى أن تكون رغبة الإنسان متحدة مع إرادة الله . فكل ما يحبه الله يجب على المرء أن يُعزّه ، وكل ما يبغضه الله يجب عليه أن يمتقه من أعماق قلبه . وليس على الإنسان أن يحذر المآثم التي لا يحب الله انتشارها في أرضه فحسب ، بل عليه أن يبذل كل قوته ونشاطه لاكتساحها من على ظهر الأرض كما أنه يجب أن لا يقنع بمجرد تحلية نفسه بالفضائل التي يريدها الله منشورة على أوسع نطاق في الدنيا ، فإن على كل واحد أن يعمل لتشيد صرحها وإذاعة كلمتها ولو كلفه

ذلك حياته . وإن الإنسان إذ يصل إلى هذه المرحلة فإنه يبلغ ذروة القربى من الله ، ومن ثم تكون هذه غاية الرقى الروحى للإنسان .

هذا السبيل للرقى الروحى لا يقصد به الأفراد وحدهم ، بل الجماعات والأمم على حد سواء . فمثل الجماعة مثل الفرد ، تصل بعروجها في مدارج الإيمان بالطاعة والتقوى إلى ذروة الإحسان . وكذلك الدولة بكل جهازها الإدارى تغدو مؤمنة فمسلة فتقية فمحسنة وإنما تحقق مقاصد الإسلام فى الحقيقة على وجه سليم حين تسلك الجماعة بأسرها هذا السبيل وتبرز إلى حيز الوجود العالمى دولة التقى والإحسان .

ولنلق الآن نظرة على نظام الرياضة الروحية الذى اختطه الإسلام لإعداد الفرد والمجتمع على هذا الأسلوب . ويقوم هذا النظام على أربع دعائم .

فدعامته الأولى هى الصلوات التى تذكر الله فى فكر المرء خمس مرات كل يوم ، وتذكره بنخشيته وتملؤه بحبته ، وتدفعه إلى تذكر الأوامر الإلهية المرة تلو المرة ، وتروضه على طاعة الله . هذه الصلوات لا تؤدى فرادى من كل على حدة ، بل الأولى أن تؤدى مع الجماعة ، حتى تعد هذه الجماعة — بل والمجتمع كله — لسلوك سبيل الرقى الروحى . والصوم هو الدعامة الثانية ، وهو الذى يروض المسلمين أفرادا وجماعة على التقوى شهرا كاملا فى كل عام .

والدعامة الثالثة هى الزكاة التى تنشر معنى التضحية المالية والتعاطف والتعاون بين مجموع المسلمين . والناس فى هذه الأيام يأخذون الزكاة على تأويل خاطئ كضريبة خسب ، رغم أن الروح التى تكمن وراء أدائها مخالفة تماما لتلك الروح السكينة من خلف دفع الضرائب . فمعنى الزكاة الحقيقى هو النماء والتطهير . ويريد الإسلام باستعمال هذه الكلمة أن يدفع إلى قلب المرء أن العون المالى الذى سيعود على إخوته سوف ينهض بروحه ويظهر أخلاقه حين يستلهم الحب الخالص لله .

ورابع الدعائم هو الحج الذى يهدف إلى عقد أخوة عالمية بين المؤمنين على أساس عبادة الله . وإنه ليلعب الأوج فى تلك الشعيرة التى ظلت الأمة تلبى بها نداء الحق على مر القرون ، وسوف تمضى على تلبية هذا النداء إلى الأبد إن شاء الله .

نظرات في التربية

للاستاذ عبد العزيز عطيه

المراقب المساعد بمنطقة دمنهور التعليمية

في شهر ربيع الأنور سنة ١٣٦٧ الموافق يناير سنة ١٩٤٨ صدر العدد الثالث من مجلة الشهاب القراء لصاحبها ومديرها « حسن البنا » المرشد العام للإخوان المسلمين طيب الله ثراه ورضى عنه وأرضاه . وفي هذا العدد بدأت أكتب « نظرات في التربية » بناء على توجيه منه ، وتلبية لرغبته في طرق أبواب جديدة رأى أن القراء في حاجة إليها . والشعب في حاجة ماسة إلى معارف تأخذ بيد الأبناء والآباء والأمهات والمربين عندما يخوضون معركة الحياة ويقوم كل بنصيه فيها . وعندما أراد البطلون (عليهم لعنة الله) أن يطفئوا نور الله بأفواههم ؛ فأصدروا أمراً بحل الإخوان المسلمين ومصادرة الشهاب ، وغمسوا أيديهم في دم الشهيد الزكي كانت الشهاب وما يتبعها في مهب العاصفة فاقتلعتها الأنواء ، واصطلحت عليها الخطوب ، وأصبحت ذكرى ؛ فجفت الأقلام وطويت الصحف . إلا أن الله الذي وعد الحق أن يزهق الباطل ، وأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون قد قشع الغاشية ، وبدد الظلم ، وعاد الإخوان أقوى مما كانوا ، وأعيدت إليهم دورهم وما بقي من أموالهم ، ولم ينقصهم إلا رائداهم الذي عز عليهم فقده . على أن الله سبحانه (على سنته في خلقه) قد عوضهم في فقيدهم خيراً إذ وفقهم إلى اختيار مرشد لهم ملء السمع والبصر ليقود الكتبية ويحمل المشعل والله في عونته .

وفي سحر هذه الليلة التي كان الإخوان ينتظرون فيها أن تضحى شمس الحق وترتفع رايته قد بدأت مجلة « المسلمون » تنبثق مع الفجر وتلبس حلتها وتكتمى بها . فصدر العدد الأول منها في ربيع الأنور سنة ١٣٧١ ديسمبر سنة ١٩٥١ . وقد ترسنت خطا شقيقتها الكبرى « الشهاب » التي وأدها الظلم شابة مكتملة . ثم هي تلمس عقدها في نحرها فلا تجد حبة منه كانت تراها في نحر تلك الشقيقة حتى تطلبها فتسرع ملبين شاكرين نحملها باليمين لتسكون في سلكها النظيم عنواننا من عناوين العدد الثالث « نظرات في التربية » ولعل من قرأ ما نشر في الأعداد : الثالث والرابع والخامس من الشهاب يذكر أننا قد بينا أهمية التربية في العصر الحديث ، وضرورة اتساق التربية الإسلامية والتربية الحديثة معاً في بلاد الإسلام ؛ ليتمكن الارتفاع بترائنا العظيم الذي لا غنى عنه في التربية

مختلطاً بأصلح ما وصل إليه العقل الإنساني في العلم الحديث ، لنسائر العصر في الرقي الفكري مع الاحتفاظ بما لنا من عقائد وعادات وتقاليد إسلامية . وذكرنا أن الإخوان المسلمين الذين قبضوا على ناصية التوجيه الصحيح في هذا البلد ؛ ليوجهوا الشباب الوجهة الصالحة إنما هم في حاجة ماسة إلى تعرف الطرق الواضحة ، والسبل الموصلة إلى تقويم نشر هذه الأمة تقويماً يصلح ما أفسدته الأيدي العابثة بترائها وأبنائها وهم يحاولون محاولات قوية بقدر ماتسعهم أموالهم ورجالهم .

ثم أوردنا بعض آراء المريين في بدء تربية الطفل ، وضرورة العناية به قبل الولادة ، وبيننا أن الانفعالات الأم وهي في حملها تؤثر في الطفل تأثيراً شديداً . كما بينا أن إسرافها في شهواتها خارج بيتها وداخله يعرضها لأقسى الانفعالات مما تورثه طفلها . وبيننا أن الأخلاق الإسلامية واتباع تعاليم الإسلام تنأى بالأم عن هذه الانفعالات ، وأن الهدوء في المنزل ، وحسن علاقة الزوجين يهيئ بيئة صالحة للأطفال ؛ إذ يقتدون بوالديهم في حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم فيخرجون على هدى وصلاح . ثم تكلمنا عن خلقة الطفل المزود بالغرائز وال ميول والوجدانات ؛ لنوضح بعض الإيضاح ما فطر عليه الأطفال لمقابلة هذه الحياة ، وبيننا آراء العلماء في فطرته من خير أو شر ، ومدى ما يستطيع الربى أن يصلحه من قوى الشر ، وأن يبيته من طرق الخير ، وكيف يسير في ذلك متتبعا غرائز الأطفال وطبائعهم . وقد أوضحنا آراء العلماء في ذلك ثم فصلنا بينهم بما أتى به القرآن والسنة في ذلك : «وهديناه النجدين» ، «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» . ثم تعرضنا إلى بحث عام في الغريزة والميل ، ووضحنا رأى العلماء في الغرائز من حيث تكوينها وعملها ، وبيننا أن الميول تتكون من الغرائز ، وأن لها أنواعاً ثلاثة هي الميل الإدراكي ، والميل الوجداني ، والميل النزوعي وللغرائز أقسام فمنها ما يظهر بمجرد الولادة : كغريزة الحركة وحب الطعام ، ومنها ما يتأخر كثيراً أو قليلاً : كغرائز التقليد والاستطلاع والإحراز والدفاع ، والغريزة الجنسية التي قد تتأخر إلى أربعة عشر عاماً . ومن الغرائز ما يضعف شيئاً فشيئاً بهذيبه ، وتكوين عادات مكانه تنفق وما للجمهور على الإنسان من حق وواجب : كاحترام ملك الغير أو التأدب في حضور الكبار حتى يكف الطفل عن الهذر ، ومن الغرائز ما يخلق قويا فيستبقي بقوته بل وينمى حتى تؤدي الغريزة مهمتها في تكوين الطفل كما في الحركة ، وحب الاستطلاع ، والتغلب على الصعاب والدفاع . ومن الغرائز

ما يخلق ضعيفا لا يقوم بمطالب الحياة . وعمل المربي في هذا الضعف تقويته وتنميته بأنواع العلاج النفسى حتى تقوى الغريزة أو الغرائز الضعيفة .

وكما نرى أشجار الحديقة المتفقة النوع والغرس والرى والتعهد مختلفة في نموها وثمرها ؛ فكذلك الأطفال يختلفون في نموهم الجسمى والعقلى والخلقى . ولأننا لا نستطيع ترك الضعيف للطبيعة فيتخلف كثيراً عن ركب الحياة بل الواجب بذل العناية الشديدة في علاجه وتكميل النقص فيه ليصل إلى درجة في الحياة يستطيع بها أن يقوم بنفسه في معاشه .

ولهذا كان واجب المربي والمربية في المدرسة ثقيلًا عظيمًا ، وكان المعلم حريصًا بأن يختار ممن لهم دراية بفن التربية ، وإلا فإذا كان الخلاق يؤتمن على أن يعمل جراحة في البطن أو العين مثلاً فأنتا نأمن أى متعلم أن يقوم بتعليم الأطفال وتربيتهم ومن هنا نستطيع أن نحكم على مقدار ما يتعرض له تربية هذا الجيل من الخطر العظيم الذى يتولى التعليم فيه في الرياض وفي المدارس الابتدائية قوم لاصلة لهم بمهنة المعلم .

وفي مقال تال سنتكلم إن شاء الله في التربية والتعليم والفرق بينهما ومهمة المعلم والمربي .

« حَتَفَهَا فِي سَمْنِهَا »

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى : أما بعد ؛ فإن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته . وإياك أن تزيع فتزيع عمالك ؛ فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتمت فيها تبتغى بذلك السمن ، وإنما حتفها في سمنها والسلام ؟

مع المارفين

عتبة الغلام

(٢)

والتاريخ لم يفرغ بعد من حال عتبة الغلام ، فما يزال لديه مزيد من تلك الصور المشرقة ، صور الوجدان الواله المنجذب إلى جمال الحق . . . لقي عتبة صديقاً له فقال : كدت لا ترانى يا أبا أنس ! قال أبو أنس : وما ذاك فأنى أرى وجهك وصوتك لا يثبتان على حال ؟ . . . قال : كادت الأرض تخسف بى ! قال : وما جنايتك ؟ قال : رأيت أحد إخوانى فقال لى يا عتبة : أنت فى كساءين وأنا فى كساء واحد ؟ . . . فوالله لولا أنى أعطيته لما ظننت أنى أنجو من الأرض وهى تميد بى تريد أن تأخذنى كما أخذت قارون من قبل !

وهل يريد أخى القارىء أن أحدثه عن ذلك الضمير المرهف الذى زلزل الأرض بقدى صاحبه ، لا لجناية جناها بل لأنه بدأ فى توبين وصاحبه فى ثوب واحد ؟ . . . إن كل حديث عنه لا يبلغ حقيقته أبداً ؛ ولقد بدت صورة هذا الضمير للبصائر تهز الكيان وتثير رواكد النفس ، وتعرض على ذهن القارىء حال أولئك الغلاظ الذين لا يكتفى أحدهم أن يجمع لنفسه كل شىء ، وليس لأخيه شىء . . . بل يحوز إلى جانبه كل شىء ، ويدود أخاه أن يكون له شىء . . . لا يكتفى أحدهم بذلك ولا يطيب عيشه حتى يتمتع نفسه برؤية الفارق الشاسع بينه وبين أخيه المحروم ، فإن نفوس هؤلاء الأنانيين تتغذى من رؤية هذا الفارق بالذم مما تتغذى به معداتهم وأبدانهم . . . وليس أشهى فى غرور أحدهم إذا خرج على الناس فى زينته من أن يرى وجوه الذل تغنو لكبريائه ، ونظرات البؤس والفاقة تنقل إلى سريره ما تشهاه خواطر المحرومين ؛ فيفرح قارون الصغير بما فرح به قارون الكبير يوم : « قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون »

بذلك الضمير الحى القوى تنعقد قيمة المرء ، فانظر ماذا يساوى عتبة الغلام بين الرجال ، أو بين عظماء الرجال بهذا الضمير ؟ لقد كان ضميراً متعدد نواحي الحساسية ،

فما تراء إلا متجاوبا مع فضيلة من الفضائل أو فزعاً وجلاً مما حسبه تفريطاً زلت به قدمه .
لقيه عبد الواحد بن زيد مرة في رجة القصابين في يوم شات شديد البرد فإذا هو
يرفص عرقاً وقد أطرق برأسه لا يرفعه !! قال عبد الواحد فدنوت منه وقلت : عتبة !!

قال : نعم

قلت : ما شأنك

قال : خير

قلت : مالك تعرق في مثل هذا اليوم ؟

قال : خير !!

قلت : نشدتك الأنس الذي بيني وبينك والإخاء ألا ما أخبرتنى .

قال : ذكرت والله ذنباً أصبته في هذا المكان فخرني ما ترى وأنا تحت عين الله .
ترى ماذا تكون العظمة إذا لم يكن أمثال هؤلاء هم العظماء ؟ إن الإنسانية بحاجة
إلى تقرير موازين صادقة لمعانى العظمة ، موازين تنفي الزيف فلا تقوم لشيء من تهريج
المهرجين وجرأة السفاحين وقوة الغاصبين وشهرة المضلين من أهل الرياء والكذب
والغدر ، ولا تحفل إلا بهذا الباب الذي يقوم على مجاهدة النفس والاستشراف إلى
الحقائق العليا . وتسألني ماذا أُسند إلى هذا الرجل من مناصب أو ماذا تَقَلب فيه من
أسباب الثروة ؟ هل كان قائداً مظفراً أو كان والياً تحدث الناس بمجدرياسته أو وزيراً
في مقر الخلافة قصده وجوه الناس أو إماماً في العلم تراحم العلماء والطلاب في مجلسه ؟
فإذا لم يكن واحداً من هؤلاء فهل كان من أرباب الضياع الواسعة أو صدور التجار
الذين كانت لهم قوافل السفن غادية ورائحة كم شركة أقام أو كم مصنعاً أنشأ ؟ إننا
اعتدنا أن نسمى كل هؤلاء عظماء وليس في موازيننا ما يحفل بغير النجاح في تلك
الميادين فأى شيء كان عتبة الغلام من ذلك ؟ . . . نعم حدثنا أبو عمرو البصرى قال :
« كان رأس مال عتبة فلكسا واحداً فيشترى به الخوص فإذا عمله باعه بثلاثة فلوس .
ففلس يتخذ له رأس ماله وفلس يشتري به شيئاً يفطر عليه وفلس يجعله في سبيل الله ،
يتصدق به أو يعين على نائبة » .

وليس لنا أن نعجب بعد ما قدمناه كيف حفل التاريخ بصانع الخوص ورأى صورته
جديرة بالتسجيل ؛ فتاريخ تلك الحقبة لم يكن كتاريخنا الحالي لا ينظر إلا إلى بهجة المنصب
وقوة الجاه وذبوع الشهرة وسعة الثراء والمال بل كان يحفل أول ما يحفل بحقائق النفوس
ومعادن الطباع وروعة المجاهدة والتزام شرائط التقوى ولا يعجد مظهر آمن المظاهر إلا إذا

كان ممدوداً بسر من أسرار عظمة الروح . لقد طالما أنحى عتبة على نفسه بالتخفي وخمول الذكر فراراً من فتنة النظر إلى غير الله فكان الذي عمله سبب ذبوع ذكره . وسعى أشرف الناس إليه وذوى الرياسة والجاه منهم؛ قال سليمان^(١) بن علي لبعض أصحابه : ويحك أين عتبة هذا الذي أفتن به أهل البصرة ؟ . فخرج به حتى أتى بعض الأماكن فوقف به على عتبة وهو مطرق الرأس ينكت الأرض يعود في يده وهو لا يشعر بمكانهم منه .

قالوا : السلام عليك يا عتبة .

فرفع رأسه فنظر فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

قالوا : كيف أنت يا عتبة .

قال : بين حالين لا أقر على حال منهما : بين جحيم أفرع منه ونعيم لم أقدم له شيئاً فإذا قدمت على الله فما عسى أن يكون قدومي . ثم نكس رأسه وجعل ينكت الأرض : فقال سليمان لصاحبه : أرى عتبة قد أحرز نفسه ولا يبالي ما أصبحنا فيه وأمسينا . . . ثم قال يا عتبة قد أمرت لك بألفي درهم ، قال : أقبلها منك أيها الأمير على أن تقضى لي معها حاجة قال سليمان وقد سره ما سمع من عتبة نعم ما حاجتك ؟ قال حاجتي أن تعفيني منها وتجعلها إن شئت في مصالح المسلمين ! ! قال سليمان قد فعلت ثم عاد أدراجه مع صاحبه وهو يقول أزاح عتبة القناع عن قلبي فإذا الذي نحن فيه هين وإذا الذي كنا نستطيل من الأجل حاضر أمام أبصارنا ! !

وحق لمن يجلس إلى هذا الزاهد التقي أن يفيق من غفلته وتنتصب في ذهنه معالم الآخرة ، فإنه ما رأى لنفسه فضل عبادة قط فيركن إليه ولا غابت القيامة عنه فيبطيء الخطأ ؛ بل هو الحزن العميق على ما يرى من تقصير نفسه فلا يقر على قرار وفيح جهنم يفور بين أذنيه وعينيه فلا ينجيه إلا الفرار المتواصل إلى الله . . . قال عبد الواحد بن زيد صديقه الحميم لقد كنت أسهر ، ما يسهرني إلا التفكير في أمر عتبة وطول حزنه ولقد كلمته ليرفق بنفسه فبكي وقال : إنما أبكي على تقصيري . . . وقال : كان عتبة يزورني وربما بات عندي — فبات عندي ليلة فبكي من السحر بكاءً شديداً فقلت

(١) سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عهد إليه في مبدأ الدولة العباسية بإقرار دعائهم في البصرة والتمكين لها فقتل كل من حامت حوله شبهة الهوى لبني أمية أو عدم الإخلاص لبني العباس حتى أفنى خلقاً كثيراً وعلى ذلك يكون عتبة عاش أواخر عهد بني أمية وصدر الدولة العباسية .

ارفق بنفسك يا عتبة فما هو إلا أن مال ليسقط فاحتضنته فجعلت أنظر إلى عينيه تتقلبان فناديت : عتبة عتبة . . فأجاب بصوت خفي : إن ذكر العرض على الله قطع أوصال المحبين ! ...

تراك يامولاي تعذب محبيك وأنت الرؤوف الرحيم .
ولقد أسلفنا إليك بعض الحديث عن جهاده وما كان في هذا الجهاد إلا آية من آيات الله في قوة النفس وثبات الجنان لا من حيث كثرة الذين قتلهم ، فإن أحدا لا يعلم كم قتل ، بل لما أحاط به من الأسرار وغرائب الأحوال .
قال محمد بن الحسين : جاءنا عتبة ونحن غزاة بشمال الشام فقلنا له : ما جاء بك ؟
قال : جئت أغزو . . . رأيت في المنام أتى آتى المصيصة فأغزو فاستشهد . . .
قلت : ما عن هذا أسأل ، ولكننا نصول بني الأصفر ، وهم قوم أشداء ، لا يغنى في نزالهم شبح أنضته العبادة والسهر مثلك ، ولا أحسب أن عودك هذا الخفيف الشاحب يستقر على صهوة جواد إذا كرت به وفر !
قال محمد : فوالله لقد نظر إلى نظرة أصابت قلبي كأنها سهم ، وتلون وجهه وقال : يا ابن الحسين . ليس العجب أن ينفر الهزيل الشاحب لقتال أعداء الله ، وإنما العجب أن ينفر إليهم مشوش الإيمان زائع القلب والعقل ، وإن النصر لا يبطيء عن جيش من جيوش الله إلا أن يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ؛ يا ابن الحسين لو أننا نقاتل القوم بمثل إيمانهم لكان من أحق الحق أن نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا قليل . ولكن شتان ما إيمان وإيمان ؛ ويارب نفس رمت جلال الله فأرحض عنها غرورها ؛ فلم تشهد إلا فقرها إليه وعجزها بين يديه ، فأمدتها بسر من بأسه ، وأيدها بكوكبة من جنده ؛ فإذا هي في الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لأن يثبت الكافر لجبل ينقض عليه أهون من أن يثبت لضربة من ضرباتها . . . وإنك لن تنصر الله يا ابن الحسين في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك ؛ فإن كنت فارس هذه المعركة فأنت فارس الأخرى بإذن الله ، فانظر ماذا يغني لحكم وشحك إذا أنت خذلته في الأولى وجئت تطلب نصره في الثانية ، وهو الذي جعل هذه بتلك جزاء وفاقا . ووعداً حقاً ، في قوله سبحانه : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » قال محمد فوالله لقد انكسرت لما قال ، وكأنما أهدى إلى نفسي قفلت له : يرحمك الله يا أخي ، إنما كنت أمزح .

أرفق بنفسك يا عتبة فما هو إلا أن مال ليسقط فاحتضنته فجعلت أنظر إلى عينيه تتقلبان فناديت : عتبة عتبة . . فأجاب بصوت خفي : إن ذكر العرض على الله قطع أوصال المحبين ! ...

تراك يا مولاي تعذب محبيك وأنت الرؤوف الرحيم .

ولقد أسلفنا إليك بعض الحديث عن جهاده وما كان في هذا الجهاد إلا أية من آيات الله في قوة النفس وثبات الجنان لا من حيث كثرة الذين قتلهم ، فإن أحدا لا يعلم كم قتل ، بل لما أحاط به من الأسرار وغرائب الأحوال .

قال مغلدة بن الحسين : جاءنا عتبة ونحن غزاة بشمال الشام فقلنا له : ما جاء بك ؟

قال : جئت أغزو . . . رأيت في المنام أني آتي المصيصة فأغزو فاستشهد . . .

قلت : ما عن هذا أسأل ، ولكننا نداول بني الأصفر ، وهم قوم أشداء ، لا يغنى في نزالهم شبح أنضته العبادة والسهرة مثلك ، ولا أحسب أن عودك هذا الخفيف الشاحب يستقر على صهوة جواد إذا كربه وفر !

قال مغلدة : فوالله لقد نظر إلى نظرة أصابت قلبي كأنها سهم ، وتلون وجهه وقال :

يا ابن الحسين . ليس العجب أن ينفر المهزبل الشاحب لقتال أعداء الله ، وإنما العجب أن ينفر إليهم مشوش الإيمان زائع القلب والعقل ، وإن النصر لا يبطيء عن جيش من جيوش الله إلا أن يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ؛ يا ابن الحسين لو أننا تقاتل القوم بمثل إيمانهم لكان من أحق الحق أن نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا قليل .

ولكن شتان ما إيمان وإيمان ؛ ويارب نفس رمت جلال الله فأرحض عنها غرورها ؛ فلم تشهد إلا فقرها إليه وعجزها بين يديه ، فأمدتها بسر من بأسه ، وأيدها بكوكبة من جنده ؛ فإذا هي في الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لأن يثبت الكافر لجبل

ينقض عليه أهون من أن يثبت لضربة من ضرباتها . . . وإنك لن تنصر الله يا ابن الحسين في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك ؛ فإن كنت فارس هذه المعركة فأنت فارس الأخرى بإذن الله ، فانظر ماذا يغني لحكمك وشحمك إذا

أنت خذلته في الأولى وجئت تطلب نصره في الثانية ، وهو الذي جعل هذه بتلك جزاء وفاقا . ووعداً حقاً ، في قوله سبحانه : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » قال

مغلدة فوالله لقد انكسرت لما قال ، وكأنما أهدى إلى نفسي قفلى له : يرحمك الله يا أخي ، إنما كنت أمزح .

فقال أحدنا : نرجع ، فقال عتبة : والله ما نكون أغنيا شيئا ، إنما أرسلنا قومنا لأنبيهم نبأ العدو . . . فمضينا ، حتى أبعدها في الدرب فإذا كمين لهم قد خرج علينا نجاة ، فاستقبلناه بالتكبير والسيوف حتى أفينا أكثره ، وكان من وراءهم من القوم قد سمعوا تكبيرنا فجاءوا لنجدتهم .

وسكت الرجل برهة كأنما ازدحمت صور الكلام في ذهنه ، فهو لا يدري بأيها يبدأ ، ثم استأنف يقول : إنما رأيت من أسرار ذلك اليوم ما يشبه المعجزات ، فإن ذلك الجمع المنحدر علينا من وراء التلال قد انفرط عقده قبل أن يصل إلى بطن الوادي . . . وقد استقبلناهم بتكبير خلنا أطراف الآكام تهتز به ، وما لبثنا أن سمعنا عتبة يدعو بدعوة نبض لها قلب السماء : اللهم أرزق عتبة اليوم شهادة في سبيلك تقر بها أعين المسلمين ! فدعا الكل بدعوته . . . وتلعثم الرجل قليلا واختنق بالبكاء . وقال : واخزيه ؛ كلهم دعا لنفسه بالجنة فنالها إلا أنا ، لما سبق على من الشقوة . . . واسترد نفسه وعاد يقول : لقد رأى الكفار قتلاهم في بطن الوادي فأخذهم الرعب وسمعت أحدهم يقول وهو يولول : ما هؤلاء بشر . . . لقد ملأوا الوادي بجثث القتلى منا . . . ورأى فريق منهم فلول الكمين وهم يتأودون بضرباتنا فيصعدون في الرُّبَا هربا ، فانقلبوا يساقونهم عدوا وإدبارا . . . وطائفة منهم ثبتت ما أحسب أنها ثبتت إلا لينفذ الله ما دعا به الشهداء لأنفسهم ، فحمل عليهم عتبة ، وصدقنا الحملة معه ، وتكاثر القوم علينا وجعلوا يحيطون بنا ؛ فكان عتبة يهتد فيهم بسيفه هذا حتى أوهم بأسهم وأذهب عددهم . . . فكانوا يتحاشون أن يلقوه وحدانا ، فجعلوا يتكوبون عليه كوكبة بعد كوكبة ولكنهم ما كانوا يلقونه حتى يتطايروا من أمامه تطاير البعوض فلما استحضر فيهم القتل كمن له سبعة نفر منهم خلف صخرة في جانب المعركة يتلمسون الغرة منه .

ونهد عتبة إلى كوكبة بعيدة كانت تحرّش عليه ، فانقض على رؤوسهم كالقضاء فأفناهم في مثل رجع الصدى ، وبينما هو يأتى على بقيتهم رأى واحدا من أصحابه ينحرف من فئة عسكره بأسيا فها ، فما أن رآه عتبة حتى خفّ لنجدته فمر بالصخرة وهو لا يرى ما وراءه ، فما كاد يوليها ظهره حتى رأى الكمين أن الفرصة قد أمكنته ، فخرجوا من مكنتهم ، وهز كل منهم حربته ، حتى إذا رضى مكانها في يده ، أرسلها الأول إلى ظهر البطل فمركت في جوفه حتى أحس سنانها بين ثديه ، فوالله لقد كبر لها

تكبيرة حسدته عليها الملائكة : الله أكبر : فزتُ وربُّ الكعبة ، وتتابعت بقية الطعنات السبع حتى خر صريعا . . . وما هو إلا أن رآه أصحابه مضرجا بدمائه حتى توائفوا أن يموتوا على ما مات عليه ، فأقبلوا على أعداء الله يحسونهم بإذنه فيقتلون ويُقتلون وكلما توجهت إلى أحدهم طعنته القاتلة صاح لها مكبرا : الله أكبر. فزتُ وربُّ الكعبة ، وما زالوا يسقطون واحدا تلو الآخر حتى إذا سقط آخرهم لم يبق في المعركة من القوم إلا فلول مجهدة .

قال مخلد : وسكت الرجل عند هذا الحد والقوم في رهبة مما سمعوا ، وانتدب جماعة منا لدفن شهدائنا فمضيت معهم وكان عتبة أكبر همي . فأخذت أبحث عنه فلم أعر له على أثر فقلت في نفسي : يا سبحان الله ! ! أترى الله حقق له ما كان يدعو به : « اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطن السباع .. ؟ » يرحمه الله ! !



غنى ثم طار

« هذا الإنسان ! حياته على الأرض مثل طائر عذب النغم وقف ساعة على غصن :

غنى ثم طار »

« إقبال »

الفلاسيك

« إلى أرواح الشهداء الخالدين . . . »

« وإلى شعب النيل في صراعه ضد الأمبراطورية الآفلة . . . »

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

نُفِخَ الصَّوْرُ !! فانتبه من سُبَاتِكَ أيُّهَا الشعب .. تلك أولى حياتِكَ !
شابَ فيك الرقادُ ، واختَبَلَ الموتُ ، جُنُونًا ودهشةً من مَوَاتِكَ
كلَّما هَبَّتِ المقاديرُ تُخَيِّمُكَ ، تَجَبَّرَتْ .. يَا لَبَاسِ رُفَاتِكَ !
زَجَرَتْ حولَكَ الأعاصيرُ ، وانشَقَّ دُجَاهَا ، وما زِلْتَ غارقًا في صمَاتِكَ
وتقولُ الدماءُ ما قالتِ الرِّيحُ لِقَبْرِ مُبْعَثَرٍ في فَلَاتِكَ :
شَهْقَةُ النَّارِ .. وانتِفَاضُ الرَّدَى البَا كِي عَلَى كُلِّ ذَرَّةٍ فِي حَصَاتِكَ
ولَطَى السَّوْطِ .. وهو تَسْدِيحُ عَبْدٍ شَرِبَ الرِّقَّ كُلَّهُ مِنْ صَلَاتِكَ
والمساميرُ ، والسَّلَاسِلُ ، والأغلالُ ، والقيْدُ .. كلها مِنْ سُقَاتِكَ
والآسَى ، والضَّبَابُ ، والعَنَمَةُ السَّودَاءُ ، وَالْهَوُ .. تلك رُؤْيَا رَبَاتِكَ !
أطبقتِ حولَكَ الزَّعَارِعُ والأهوالُ .. عَطَشَى ، تُرِيدُ بعضَ التِّفَاتِكَ !
دَمَّرَ القَبْرَ .. أَزْجَرَ الموتَ .. أَخْرَجَ عَنْ سَكُونِ يَنْوُحٍ فِي ظُلُمَاتِكَ
وَتَحَرَّكَ !! فَإِنَّ رَكْبًا مِنَ الْغِيلَانِ جَوْعَانَ فِي حَشَا طُرُقَاتِكَ
دَسَّ فِي مَحْجَرِيهِ سَبْعِينَ عَامًا لَمَّا مِنْ أَسَاكَ ، مِنْ نَكْبَاتِكَ ..

مِنْ دُمُوعِ الْجِياعِ ، أَهْلِكَ .. يَمْنَنُ أَنَا مِنْهُمْ صَرِيحُ تِلْكَ الْمَفَاتِيحِ
 مِنْ حَدِيدِ الْقَوُوسِ تَضْرِبُ فِي الْحَقْلِ ، لِيُجَرِّى لَهُ نِمَارَ نِبَاتِكَ
 مِنْ جَبِينِ لَدَيْكَ خَدَشَهُ الظُّلُمُ ، فَأَخْفَى الْهَوَا فِي نِظَرَاتِكَ
 مِنْ خِلَافِ يَكَادُ أَهْلُكَ فِي أَضْغَانِهِ السُّودِ ، أَنْ يُرَوْا مِنْ عِدَاتِكَ
 مِنْ ضِيَاعِ الدِّينِ ، حَتَّى كَانَ الدِّينَ وَنَمَّ يَمُرُّ فِي خَلَجَاتِكَ
 مِنْ شُعُورٍ بِغَيْرِ رَبِّكَ حَتَّى حِينَ تَنْقَاهُ فِي غِيَابَاتِ ذَاتِكَ
 مِنْ خُنُوعِ تَنَامٍ فِي ذُلِّهِ اللَّذَاتُ نَشْوَى تَسْمِيعُ فِي رَغَبَاتِكَ
 مِنْ خُضُوعٍ مُمْلَقٍ حَفَرَتْهُ طَعَنَاتُ السَّنِينِ فَوْقَ سِمَاتِكَ ..
 كُلُّ هَذَا .. حَصَادُ طَاغِينَ جَاءُوا يَزْرَعُونَ الْخِرَابَ مِنْ غَفْلَاتِكَ
 وَيَشْدُونَ لِلْفَنَاءِ قِيُودًا مُثْقَلَاتٍ عَلَى خُطَا نَهَضَاتِكَ
 شَرِيقَ الشَّرْقِ مِنْ أَسَاحِمِ عَذَابٍ أَنْتَ تَدْرِي لَظَاهُ فِي عَثَرَاتِكَ
 عَبَرُوا لَجَّةَ الْبِحَارِ لُصُوصًا وَعَدَّوْا كَالذَّنَابِ فِي فَلَوَاتِكَ
 وَأَقَامُوا مَجَازِرًا تَحْجَلُ الدُّنْيَا لِأَهْوَالِهَا بِشَطِّ « قَنَاتِكَ »
 اسْتَبَاحُوا الدِّيَارَ !! يَالْذِّاءَ الْعَارِ مَسْتَضْرِخًا إِلَى مُحْصَنَاتِكَ !
 وَأَرَاقُوا الدَّمَ الزَّيْكَى ! وَمَا سَالَ بِغَيْرِ الْحَيَاةِ مِنْ مُهْجَاتِكَ !
 فَتَكُوا بِالنِّسَاءِ .. بِالشَّيْبِ .. بِالْأَطْفَالِ .. وَاسْتَرْخَصُوا حِمَى عَتَبَاتِكَ !
 وَأَبَاحُوا الْكِلَابَ تَنْهَشُ أَحْشَاءَ الشَّبَابِ الْمُرَاقِ مِنْ فَلَدَاتِكَ !
 وَتَمَادَوْا .. فَهَاجَمُوا يَافِعَ الزَّرْعِ ، وَحُمِلَى الْقُوتِ مِنْ سُنْبُلَاتِكَ !
 فَزَعُوا الْآمِنِينَ فِي هَجْعَةِ الدُّورِ . وَشَقُّوا الْحِيَاءَ عَنْ حُرْمَاتِكَ !
 وَأَعَاضُوا بُيُوتَ رَبِّكَ بِالْأَذْنَانِ وَالرَّجْسِ عَنْ تُقَى صَلَوَاتِكَ !
 كُلُّ هَذَا ... وَأَنْتَ فِي دَوْرَةِ الْإِيَّامِ مُسْتَنْفِشِيًا فِي سُبَّاتِكَ
 تُسَلِّمُ اللَّيْلَ لِلنَّهَارِ ، وَتَسْعَى بِشَجُونِ النَّهَارِ فِي أُمْسِيَّاتِكَ

باحثًا .. باحثًا .. عن القوتِ ، والعيش .. وماذا جمعتَ غيرَ فُتَاتِكَ ؟
 وَسِينِينَ تَمُرُّ .. ما أنتَ فيها غيرُ قُوتِ مُسَخَّرِ لِفُزَاتِكَ ..
 قُمْ .. تَجَرَّذْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى الْإِيمَانِ بِالْمَوْتِ فِي سَبِيلِ حَيَاتِكَ
 وَأَسْأَلُكَ الدَّرَبَ لِلْمَنَايَا الْعَظِيمَاتِ ! فَمِنْهَا يَعْبُ قَلْبُ حُمَاتِكَ
 الْفِدَاءَ ! الْفِدَاءَ ! .. نَادَاهُمُ السَّيْلُ .. فَخَفُّوا كَالطَّيْرِ فِي شَجَرَاتِكَ
 خَوْضُوا فِي الدَّجَى الْمَلْعَمِ بِالنِّيرَانِ ، تُخَفِي الرِّيَّاحَ عَنْ أَسْلَاتِكَ
 وَيَدُ اللَّهِ فِي يَدَيْهِمْ سِلَاحٌ طَيِّفُهُ لِلْعِدَا خُتُوفُ فَوَاتِكَ
 صَدْرُهُمْ زَاحِفٌ عَلَى رَعَشَةِ اللَّيْلِ ، بِطَرْفِ لِبَنَتَةِ الْمَوْتِ هَاتِكَ
 وَخُطَاهُمْ كَأَنَّهَا عَسَسُ الْجَنِّ ، تَرُوعُ الرَّدَى .. إِلَى أُمْنِيَّاتِكَ
 تَنْسِفُ الْمَوْتَ ، وَالْحَيَاةَ ! وَتَهْدِيكَ الضَّحَايَا تُضِيءُ فِي غَاشِيَاتِكَ ..

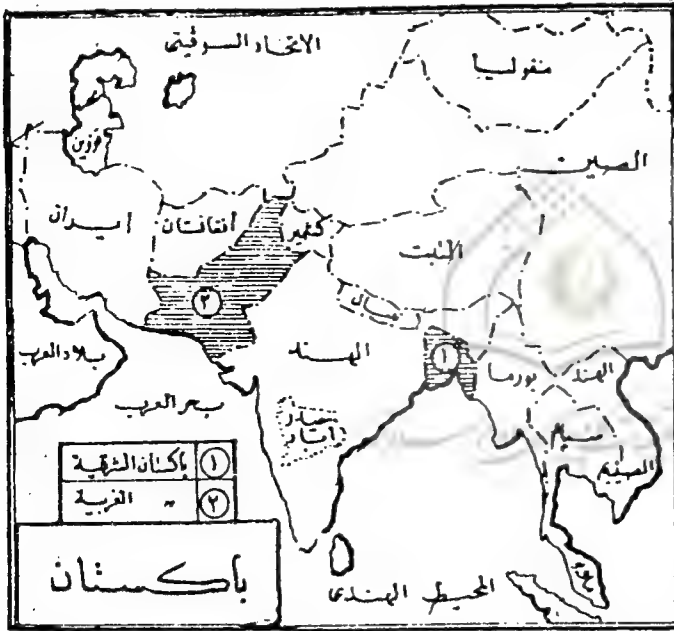
أَيُّهَا الشَّعْبُ ! إِنَّهَا صَرْخَةُ الْمَيِّتِ .. فَحَرِّكْ بِهَا رَمِيمَ سِفَاتِكَ
 وَأَنْفُخِ الصُّورَ لِلْكَفَاحِ .. وَهَزِّ الْقَوْمَ هَزًّا يَوْجُ مِنْ عَزَمَاتِكَ
 لَنْ تَذُوقَ الْحَيَاةَ حُرًّا .. إِذَا لَمْ تَسْقِهَا مَا تُرِيدُ مِنْ نَضِجِيَّاتِكَ
 فَامْضِ لِلْغَاصِبِينَ بِالنَّارِ ، وَالْآجَالِ .. وَاضْمُمْ لَهُمْ زَنْبَرَ خُدَاتِكَ
 وَإِذَا رَفَرَفَتْ نُعُوشُ الضَّحَايَا كُلِّ يَوْمٍ ، وَزَغَرَدَتْ ثَاكِلاتِكَ ؛
 وَرَأَيْتَ الشَّهِيدَ يَهْتِفُ لِلْمَوْتِ ، .. وَمَنْعَى صِبَاهُ مِنْ بُشْرِيَّاتِكَ ؛
 فَهَيَّ لِلْمَيِّتِ صَيِّحَةً .. وَأَذَانًا : أَيُّهَا الشَّعْبُ .. تِلْكَ أُولَى حَيَاتِكَ !!

الباكستان المسلمة

مولدها :

ولدت الباكستان في ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ وتتكون من المناطق التي كان المسلمون يكوّنون فيها أغلبية . ويشاء الله أن تقع عاصمة الدولة المسلمة الناشئة « كراتشي » في السند وهي الباب الذي دخل منه مشعل الإسلام الأول بحمله محمد ابن القاسم رضى الله عنه وأرضاه في أواخر القرن الأول الهجرى .

مساحتها :



تبلغ مساحة الباكستان كلها ٣٦٠,٧٨٠ ميلاً مربعاً منها (٥٣٩٢٠) للباكستان الشرقية و (٣٠٦٨٦٠) للباكستان الغربية . وتفصل الهند بين جناحي الباكستان والمسافة بينهما حوالي (١٠٠٠) ألف ميل . وتتكون الباكستان الشرقية من إقليم (البنغال الشرقية) و (سلهت)

أما الباكستان الغربية فتتكون من (بلوتشستان) و (إقليم الحدود) و (السند) و (البنجال) و (بهاولپور) و (ولاية خير بور) و (ولاية الحدود) .

ووضع الباكستان هكذا يعرضها لمتاعب كثيرة ، والتقسيم على هذه الصورة فيه ظلم مبين لها . ولعل الظروف السياسية التي اكتتفت مولد الباكستان هي وحدها التي جعلت المسلمين يقبلون هذا التقسيم ويرونه فرصة سانحة لتجميع الممكن من قواهم حتى يحفظوا عقيدتهم وموارثهم ومصالحهم من الأخطار الكثيرة التي تهددها ؛ فإن الإنجليز الذين جاءوا وفرضوا سلطانهم على انقراض الحكم الإسلامي كانوا يرون في تهيئة أسباب القوة والثروة والعلم لغير المسلمين (الهندوك) الضمان الطبيعي لاستمرار سلطانهم . ثم إن تعصب الهندوك من ناحية أخرى واشتداده يوماً بعد يوم جعل المسلمين يتخوفون كثيراً وتتابع أحداث، ومجازر جعلتهم يهربون المصير حتى أن الأستاذ (تيلاك)

زعيم الهندوك في المؤتمر الهندي (الكونجرس) صرح بعد مقتل السيد أكبر خان — وكان قاتله شيفاجي الهندوكي — صرح بقوله إن الله لم يجعل للمسلمين شيئاً في مملكة الهندوك ! وصرح كذلك في مناسبة أخرى بأن مهمة حزب المؤتمر : إنشاء حكم ذاتي تسود به مثل الأغلبية العليا ويخدم السلام العالمي عن طريق تدعيم الإمبراطورية البريطانية ١ .

سكانها

يبلغ عدد سكان الباكستان الآن حوالي (٨٢) مليوناً منهم (١٢) مليون هندوكي ! ومن بينهم حوالي (٩) ملايين مهاجر تركوا كل شيء في بلدانهم بالهند فارين إلى أقرب مكان يليهم من الباكستان . ولا تزال حركة الهجرة من الهند وكشمير مستمرة . ويعتبر نجاح حكومة الباكستان في توفير المأوى والمطعم والعمل لهذا العدد الضخم — بشهادة رجال هيئة الأمم — نجاحاً فذاً لا يفسره إلا إيمان الشعب بالله ، وبدولته الجديدة . وهناك وزارة خاصة لشئون اللاجئين .

دستورها

قدم المغفور له لياقت علي خان في (٧ مارس سنة ١٩٤٩) اقتراحه التاريخي بأن يكون الكتاب والسنة أساس دستور الباكستان الجديد . وقد وافقت الجمعية التأسيسية عليه بالإجماع . وانقسم المجلس إلى لجان لكتابة الدستور ولم يعلن شيء منه حتى الآن ولا يزال العالم الإسلامي ينتظر بلهفة النتيجة العملية لاقتراح السيد (لياقت) وهو امتحان عسير نرجو أن تكون الباكستان فيه عند حسن الظن بها .

التعليم

في الباكستان نهضة تعليمية طيبة ، وقد استطاعت في أربع سنوات أن تنشئ خمس جامعات كبيرة كاملة الدرجات العلمية في لاهور ، وداكا ، وبشاور ، والسند . وكراتشي ويبلغ عدد المدارس الثانوية ٦٤٨٦ تضم مليوني طالب وطالبة والمدارس الابتدائية ٤٠٢٩٥ بها حوالي ٣ مليون .

اللغة : تتكلم مقاطعات الباكستان بلغات محلية مختلفة ، ولكن (الأردية) تعتبر لغة عامة بينها . ويتقن المثقفون الإنجليزية ، وهناك اتجاه شعبي قوي إلى اللغة العربية وهي تدرس في الجامعات وتلقى بها خطبة الجمعة ثم تترجم . وتؤدي العبادات بها . وأنشئت حديثاً في كراتشي كلية اللغة العربية بإشراف الجمعية العربية الثقافية ، وفيها مدرسون من الأزهر الشريف ومن سوريا .

الزراعة والصناعة والتجارة : يزرع بها القمح والأرز والشعير والشاي . وأهم حاصلاتها القطن والجوت وتنتج من الجوت ثلاثة أرباع محصول العالم . ويعتبر نظام الري في الباكستان من أعظم وأكبر نظم الري في العالم . واتجاه الباكستان حكومة وشعبا إلى الصناعة واضح قوى وفيها الآن صناعات ناجحة للسكر والمصاييح الكهربائية والعقاقير والورق والأدوات الرياضية والأفلام والتعدين ، وهي تنشئ الآن محطات للقوى الكهربائية . وأهم ما أتمته مصنع الأسلحة والذخيرة الكبير الذي ينتظر أن يكون من أقوى المصانع العالمية . وميزان الباكستان التجاري في مصلحتها وهو دائم التحسن سيما بعد خفض الاسترليني وثبات العملة الباكستانية فقد زادت الصادرات من خمسة ملايين جنيه في نوفمبر ١٩٤٩ إلى حوالي ٢٧ مليون جنيه في مارس سنة ١٩٥٠ .

نظام الحكم : الحاكم العام هو رئيس الدولة ولكل مقاطعة مجلس وزراء وبرلمان ويشرف على المقاطعات جميعا مجلس وزراء مسئول أمام مجلس نيابي من سائر المقاطعات . والسياسة الخارجية والعسكرية موحدة .

الأحزاب والجماعات : الحزب القوي هو حزب الرابطة الإسلامية الذي يرأسه الآن السيد ناظم الدين رئيس الوزراء وهو حزب الحكومة . وفي الباكستان جماعتان إسلاميتان (جماعة التبليغ) ومهمتها تفتيق الناس في شئون العقيدة . (والجماعة الإسلامية) ويرأسها الأستاذ أبو الأعلى المودودي ، وهي تطالب بسرعة الأخذ بالإسلام ، ولها فروع وتنظيم في البلاد ، وتأخذ عليها الحكومة الشدة والتطرف . والمذهب السائد هو المذهب الحنفي ، ويوجد قليل من الشوافع .

الجيش : جيش الباكستان من أقوى جيوش آسيا في تنظيمه وسلاحه ، وسلاحها الجوي وأسطولها كبيران . وتنفق الباكستان أكثر من ثلث الميزانية على قواتها المسلحة . كشمير : كشمير للباكستان كالسودان لمصر ، وهي لذلك تحتل مكانا رئيسيا في سياسة الباكستان واهتمامها . وقد تحدثنا عنها في العدد الأول من (المسلمون) .

في أفق العالم الإسلامي

وراء النيل :

اشتدت حركة المقاومة الشعبية التي يقوم بها الفدائيون في ضفة القناة ، وتميزت بالتنظيم الدقيق ، على أثر وصول الكتائب الجامعية إلى ميدان المعركة ، وارتفعت تبعاً لذلك نسبة الخسائر الإنجليزية في الرجال والمهمات على السواء . وما تزال الكتائب الجامعية تتزايد ، وقد سقط في ميدان الشرف من كتبت لهم منهم الشهادة ، وفازوا بجوار الله وجنة الرضوان .

وقد بلغت الهمجية الإنجليزية في مقاومة الحركات الفدائية حداً لم يبلغه كل ما نشر عن فظائع النازي في الحرب الماضية . من ذلك إطلاق المدافع الضخمة على القرى الآمنة بدون تمييز ، وإلقاء القنابل الحارقة على بيوت القرويين ومزارعهم . ثم وصلت الهمجية إلى ذروتها في نبش قبور الموتى وانتهاك حرمة بيوت الله واستخدام مآذنها قلاعاً يصوبون منها نيرانهم على الناس ، وصلب الأسرى وقتلهم بعد تسليم الكلاب المتوحشة عليهم ، تنهش أجسامهم وتأكل منها قطعاً كاملة وهم أحياء . ثم التمثيل بجثثهم بعد الموت في سحار مجنون ، تشتم منه الإنسانية ، وتقشع لشانعة البشرية . . . وقد ضاعفت هذه الوحشية من حماسة الفدائيين ونشطوا للانتقام من هذه الوحوش البشرية التي لا تعرف قانوناً ولا أخلاقاً ولا ديناً ولا إنسانية .

أما في الميدان السياسي والديبلوماسي ، فقد نشر خير وساطة الملك عبد العزيز آل سعود بين مصر وإنجلترا ، ورد الحكومة المصرية عليه . وقد سافر سعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك سفير مصر في باكستان إلى الرياض لتسليم الرد المصري ، وقيل : إنه يتضمن أن الأساس الوحيد الذي تقبله مصر هو الجلاء والاستفتاء في السودان .

وفي الجانب الآخر كانت خطبة مستر تشرشل في الكونغرس الأمريكي ، وطلبه أن ترسل فرنسا وأمريكا وتركيا قوات — ولو رمزية — إلى ضفة القناة لمعاونة القوات البريطانية . وقد قوبلت هذه الخطبة بالاستنكار في أمريكا ، والبرود في فرنسا ، والاعتذار في تركيا . كما قوبلت بالدهشة في الدوائر الإنجليزية نفسها . وكان لهذه الحيلة وقع سيء على مراكز الإنجليز المعتدين .

بين المسلمين والأقباط :

أسفنا أشد الأسف لحادث الاعتداء الأليم على كنيسة السويس وحمدنا الله كثيراً أن تدورك الأمور بحكمة سدت منافذ الفتنة وأبقت شمل البلد مجتمعاً إزاء المستعمر الغاصب العنيد . ولكننا رغم مهارة الحادث وقسوته لا نرى سبباً يؤدي إلى انزعاج الأقباط وفزعهم ، فإن الكتائب في سائر بلاد مصر والعالم الإسلامي محترمة لا تنتهك لها حرمة . ولحادث السويس — وليس هذا تبريراً له بحال — ظرفه الخاص فقد أحدث اتهام القبطيين بالفاشوية في هذا الجو الملهب — في السويس — ثورة طاش فيها حلم العلماء .

و (المسلمون) تنهز هذه الفرصة لتقول كلمة صريحة في الأسلوب الذي يضمن بقاء شمل البلاد

مجتمعاً دائماً :

أفقد دأب سياسة مصر في سبيل جمع الشمل على تقديم المعنى الوطنى على ما سواه وبلغوا في ذلك أن قالوا المسلم والقبطى : وطنك أولاً ودينك بعد ذلك ؟ وطنوا أنهم بذلك يحققون المراد . ونحن نعتقد أنها محاولة فاشلة وغير كريمة وخطرة على المسلم والمسيحى على السواء ، فإن المسلم يقرأ في قرآنه مثل قول الله : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » — وإن القبطى يقرأ في الإنجيل مثلاً : « لا تحب العالم لا تحب شيئاً في العالم . أبغض كل شئ . لا تحب إلا الرب » . فكيف يجوز أن يقول مسلم أو قبطى : وطنى أولاً ودينى بعد ذلك . إنه إما أن يكون كاذباً مع ربه فلن يصدق معك أبداً وإما كاذب عليك ولا تستقيم وحده أساسها الكذب . إن أثر الدين في أنفس الناس أعمق مما يظن السياسة اللهم إلا أن المقصود أن يجرد الدين من سلطانه وهذا — فضلاً عن أنه وهم — فهو جناية رهيبية على الضمير الإنسانى الذى لا يمسه إلا وازع الدين ولا نظن أنفسنا بحاجة إلى التدليل الطويل على أن التاريخ الإنسانى لم يشهد مجتمعاً خلوقاً لا دين له .

فكيف السبيل إذن إلى اجتماع شمل الناس ؟

السبيل الذى لا سبيل غيره هو أن تنشذ الصلة الحقيقية بين المسلمين والأقباط باسم الدين لا على حسابه فنقول للمسلم اقرأ قرآنك واذكر فيه مثل قول الله : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . ونقول للقبطى اقرأ الإنجيل وتقرّب إلى ربك باتباع ما فيه من تعاليم المسرة والمحبة والسلام . إننا إن فعلنا ذلك أقننا الدين حارساً على اجتماع الشمل المنشود وحلّلنا عقدة النفاق بين المسلم والقبطى ولم يعد أحدهما يتكلف ليخفى ما بينه وبين الله الذى خلقه وخلق وطنه والدنيا جميعاً .

إن محاولة جمع الشمل على هذا الأساس تجرد من الإسلام كل عون وسند فالمسلم مطالب أن يؤمن بكل نبى سبق ، بل إن دينه ليأمره أن يتعلمذ على عيسى عليه السلام « كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله » ، ويفرض عليه — فى نور هذا الإيمان السافر — العدل بين الناس جميعاً وتفويض الأمور فيما وراء ذلك لله « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

تونس :

توترت الأحوال فى تونس وأذاعت وكالات الأنباء أخباراً اهتم لها المسلمون فى كل مكان وكان ذلك إثر ما لشر عن ضغط السلطات الفرنسية على باى تونس لإقالة الوزارة بعد سفر عضوين منها إلى باريس لإثارة قضية تونس فى هيئة الأمم ، واصطدم المسلمون بالبوليس الفرنسى فى أماكن متفرقة سقط فيها كثير من القتلى والجرحى .

إن هذه الحوادث فى تونس — وهى شبيهة أخواتها فى سائر أقطار الإسلام التى لاتزال تترجح تحت كابوس الاستعمار — وإن كانت تقض مضاجعنا ضجايها العزيزة إلا أننا نقرأ فيها نبض الروح الإسلامى الذى استعصت به الفريسة تحت ضربات التاريخ الطويل الأليم . فإن إخواننا التونسيين لم ينعموا براحة منذ فرضت عليهم معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٨١ .

وبأقنى الذى نسمعه اليوم من أخبار تونس حلقة جديدة فى قصة دامية لسنا ندرى متى تنتهى إلا أننا نؤمن على كل حال أن النصر للحق إذا أدى أصحابه ضريبته وصبروا ، « والله مع الصابرين » .

فلسطين :

توالت اعتداءات اليهود فى جهة قلقيلية والقدس وبيت جالا وسقط فيها قتلى من العرب وجرحى ، ولا تزال حكوماتنا الجلييلة ترد على ذلك بالمذكرات والتصریحات .

إيران :

تكاد تخرج إيران من معركة الانتخابات مجتمعة الشمل بإذن الله بالرغم من الحوادث الأليمة فى بعض الدوائر الانتخابية ، وقد خطت الحكومة الإيرانية خطوة جريئة بإغلاق القنصليات البريطانية فى إيران ورفضها السفير البريطانى الجديد واشترطها ألا يكون عالماً باللغة الفارسية وألا يكون قد اشتغل من قبل فى إيران أو فى أية مستعمرة بريطانية .

أخبار متفرقة

- كان فى طليعة شهداء القتال هذا الشهر الأخوة الأعزاء : أحمد المنيسى وعمر شاهين وعادل غانم من شباب الجامعة ... سلام عليكم أيها الأحبة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ... وإلى لقاء عزيز فى جنة الخلد .
- صدر بلاغ رسمى سعودى يكذب ما نشرته الصحف المصرية من أن المملكة السعودية قد استدعت السنهورى باشا لوضع دستور لها ويؤكد البلاغ أن دستور المملكة العربية هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنها لا تحيد عن ذلك أبداً .
- كتب فريق من إخواننا الفلسطينيين فى قطاع غزة إلى الحكومة يعلمونها أن هناك عشرة آلاف متطوع مدرب مستعدين لمشاركة إخوانهم فى القتال فى قتال الإنجليز .
- و « المسلمون » تحيى فيهم هذه الروح العالية .
- نفذ حكم الإعدام فى الأسبوع الماضى — علنا — فى يهوديين ثبت إدانتهم فى إلقاء القنابل على بعض الدور العراقية وتجرى المحاكمات الآن على نطاق واسع ضد اليهود .
- أعان جميع نزلاء سجون الجزائر الإضراب عن الطعام احتجاجاً على المعاملات الوحشية التى يعاملون بها .
- اعتقلت السلطات الفرنسية فى المغرب رجال الدين لإنهم حيوا قطراً إسلامياً شقيقاً ودعوا لأمتهم برفع كابوس الاستعمار عنها فى حين يقف وزير خارجية فرنسا يقول فى هيئة الأمم : « وإذا كان هناك من مسألة يجب أن تعنى بها هيئة الأمم فهى أولاً وقبل كل شىء قضايا حرية الشعوب واستقلالها » وهكذا تعمل فرنسا بقولها !
- دعا بعض علماء الباكستان إلى مؤتمر لعلماء العالم الإسلامى ينعقد فى كراتشى فى منتصف فبراير .
- ناز المسلمون فى سنغافورة وقاموا بمظاهرات صاخبة لعرض أحد دور السينما فيلماً عن سيدنا « داود وملكه سبأ » لتصوير الفيلم سيدنا داود قاتلاً وزانياً وقد أصدر وزير المستعمرات هناك أمراً بمنع عرض الفيلم .